الدكتور محمد شامة

الشباب
مرآة المجتمع

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شاع بين العرب في الجاهلية نكاح أُطلق عليه: «نكاح البغايا»[1] وهو أن يجتمع ناس كثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عمن جاءها - وكان هذا النوع من النساء ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً عليهن، فمن أرادهن دخل عليهن - فإذا حملت إحداهن ووضعت اجتمع كل الذين اتصلوا بها عندها، وجمعوا القافة[2] ثم ألحقوا - أي القافة - ولدها بمن يشبهه، فالتصق به وثبت النسب بينهما، فدعى ابنه، لا يستطيع إنكار نسبه، وكانوا يستعينون بالقائف أيضاً عندما ينكر الرجل نسب الولد إليه[3].

وفي القرن العشرين استخدموا فصيلة الدم (O أو A أو B أو AB) كما تطور الأمر في نهاية القرن إلى استخدام الجينات الوراثية، عند إنكار الرجل نسب ولده[4] ممن عاشرها جنسياً، فمن وافقت فصيلة دم الولد فصيلة دمه (أو اتفقا في الجينات الوراثية) نسب إليه. وهذا يدل على أن الولد - ذكراً كان أم

---

(١) البغايا: العاهرات من النساء.

(٢) القافة: جمع قائف، وهو مَنْ يُشَبِّه بين الناس، فيلحق الولد بالشبه.

(٣) كانوا يستعينون بالقائف أيضاً في اللقيط إذا ادعاه أكثر من واحد، وكذلك في طفل الوطء بشبهة، أو ولد الجارية المشتركة إذا اتصل بها كل منهما في طهر واحد.

(٤) يطلق الولد ويراد به كلا الجنسين: الذكر والأنثى.

أنثى - يحمل صفات والديه البيولوجية، فيرث منهما صفات جسمانية، وينتقل إليه كثير من الملامح الجسدية، والمكونات البشرية، وصدق من قال: «الولد ابن أبيه»، وأمه أيضاً، فهو صورة منهما، وإن خفيت بعض معالمهما عن النظر المجرد.

فهل يقتصر تأثير الوالدين على مولودهما على الناحية البيولوجية؟

بالطبع لا ! فهو يرث منهما كثيرا من العادات والتقاليد بحكم التقليد والمحاكاة؛ إذ يشب على ما يراه من أبويه، وما يتعلمه منهما، وما يحاكيهما فيه، ويتشرب منهما كل ما يراه فى تصرفاتهما، فإذا اتسعت دائرة الطفل خارج نطاق الأسرة كان معرضا للتأثر بما يراه ويسمعه ويحتك به؛ فالأصدقاء والمدرسة، ووسائل الإعلام، والمؤسسات الثقافية: كل ذلك مصادر تؤثر فى النشء وتصوغه بصبغتها، فيتشكل بالصورة التى تتكاتف على تكوينها هذه المصادر؛ إذ لا يتكوّن شىء من لا شىء، فالنبات من جنس البذرة، والثمرة من نوع الشجرة، فإذا أردنا إصلاح الشباب فعلينا مراجعة ما يتلقاه من هذه المصادر.

كيف يحدث هذا؟

ذلك ما حاولنا تلخيصه فى هذا البحث بغية الإسهام فى رسم منهج صحيح لإصلاح شبابنا حتى تستقيم حياة المجتمع، فيرقى ويشتد عوده.

والله الموفق لما فيه خير العباد والبلاد،

١٨ من شعبان ١٤٢٤ هـ

القاهر فى ١٥ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

محمد عبدالغنى شامة

الفكر واللغة

إذا ذُكرت كلمة «فكر» أو إحدى مشتقاتها مثل: فكرّ، يُفَكرِّ، تفكيَرا، مفكراً، انعكست صورة الإنسان فى الذهن، وكذلك إذا ذكر «الإنسان» لزم معه تصور الفكر؛ ذلك أن صفة الفكر لازمة من لوازم الإنسان، فلا ينفكان عن بعضهما أبداً، فكلما ذكرت إحداهما تصور الذهن الأخرى، لأن الفكر هو الصفة الوحيدة التى تميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى، إذ يشترك الإنسان مع غيره فى التراكيب الفيزيقية، والمكونات الميكانيكية، فجهاز الهضم عنده – وكذا جهاز الدورة الدموية – يكاد يكونان متطابقين فى كلياتهما وجزئياتهما مع مثيلهما فى كثير من الحيوانات، وكذلك الجهاز التنفسى. أما الجهازان: السمعى والبصرى فليسا فى الإنسان أقوى مما هما فى غيره من الحيوانات، فبعض الحيوانات تتمتع بجهاز سمعى أرهف مما هو لدى الإنسان، كما أن هناك كثيراً من الحيوانات ما يتفوق على الإنسان فى مجال الرؤية بالعين المجردة..

أما الفكر فلا يوجد كائن حى يتفوق على الإنسان فيه، أو يقرب منه، فقد وهب الله للإنسان عقلاً لا يدانيه فيه أى كائن حى، بل إن قوته وتحقيق ذاته تكمن فى هذا العضو الذى رفع الله به قدره بين المخلوقات، وميزه به على سائر الكائنات الحية الأخرى فبه احتل مكانة أفضل بين خلق الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

كَـرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسـراء: ٧٠] أى بالعـقل الذى مكنه من اكتشاف أسرار الطبيعة، فاستخدمها لاستمرار وجوده، وتوسيع دائرة متعته، وساعده على تسخير ما خلقه الله فى هذا الكون، فارتقى، وتطورت أساليب حياته، وتحسنت طرق معيشته، وتنوعت صور وأشكال استخدام ما وهبه الله من نعم ذاتية وطبيعية.

ولهذا عرَّفه علماء المنطق بأنه: « حيوان ناطق »، وليس مرادهم بالناطق، أنه هو ذلك الحيوان الذى يصدر أصواتا من فمه، فكثير من الحيوانات تصدر مثل تلك الأصوات، وقد تكون مفهومة بين بنى جنسها، بل المراد بقولهم ناطق: مفكر: فالإنسان حيوان ناطق، أى مفكر، لأن ما يتلفظ به إنما هو تعبير عن صور فكرية تكونت فى عقله، فهو يظهر بلسانه ما كمن فى عقله من صور فكرية، وهذا هو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

أى أن اللسان هو الذى يبين ما فى داخل العقل من صور فكرية. فالإنسان لا يتحدث إلا معبراً عما فى ذهنه، بل ولا يتحرك إلا طبقا لما تكوّن فى العقل من صور فكرية، فتحركه وسلوكه وتعامله مع الناس إنما هو ترجمة لما فى العقل من صور، حتى فيما يظن أنه نشاط غريزى، كالأكل مثلاً، فإنه وإن كان نتيجة لدافع غريزى، وهو الجوع – كما هو الحال فى سائر الكائنات الحية – إلا أنه فى الإنسان يخضع لأوامر عقلية، وتوجيهات فكرية، إذ أن الفكر يتدخل فى اختيار نوع الأكل،

فيفضل الشخص الجائع نوعاً على آخر. فهذه عملية فكرية، وليست غريزية صرفة. كذلك يتدخل الفكر فى عملية تغيير هيئة وشكل الأغذية لتصبح مستساغة، وليتمتع بمذاقها ونكهتها، وذلك بالطهى وإضافة الأنواع بعضها إلى بعض، وذلك عملية فكرية أيضاً. ولهذا نجد أثرها واضحاً فى الاختلاف بين الشعوب فى إعداد الطعام، فبينما نجد الشعوب البدائية تطهوه بطريقة مبسطة - وقد تأكله بدون طهى - نرى الشعوب المتقدمة تتفنن فى تنويع أصناف متعددة من المادة الغذائية الواحدة، لدرجة أن كثيرا من الشعوب تزداد أنواع الطعام لديها، كلما ارتقت فكرياً وحضارياً، وهذا دليل على أن كل تصرف يصدر عن الإنسان - حتى ولو كان فى مظهره يبدو غريزيا - فإن الفكر يتحكم فيه ويشكله بالصورة التى تكونت فى هذا العضو الذى ميزه الله به على سائر الكائنات. ولكن، من أين يستمد العقل هذه الصور الفكرية؟ هل يملك مخزونا من هذه الصور، خلقها الله معه ليستعين بها على ضبط وتوجيه نشاط الإنسان؟

لا يمكن أن يكون ذلك! لماذا؟ لأنه لو كان هذا صحيحًا، لأصبح الإنسان مسيراً، يلتزم بما خلقه الله فيه فلا يحيد عنه، الأمر الذى يعفيه من المسئولية، فيقترف الآثام دون أن يكون له ذنب فيما اقترف. أضف إلى ذلك أنه لو كانت هذه الصور الفكرية من خلق، لكان فى ذلك ظلم - وحاشا الله أن يظلم - لأنه يترتب على ذلك أن تخلق صور سيئة عند إنسان، وأخرى حسنة عند آخر، فلا يكون للمحسن فضل فى إحسانه، كما أنه لا يكون

للمسيء ذنب في إساءته، إذن، فمن المستحيل أن يخلق الله صوراً فكرية مع خلق العقل لضبط وتوجيه نشاط الإنسان.

هل يستطيع العقل أن يكوِّن هذه الصور من لا شيء؟ لا، إذ يستحيل على مخلوق أن يكون شيئاً من لا شيء، لأن الله وحده هو القادر على الخلق من العدم.

فإذا استحال خلق الصور الفكرية مع خلق العقل، واستبعدت قدرة العقل على تكوين هذه الصور من لا شيء، فما مصدر هذه الصور الفكرية؟

* * *

منبع الصور الفكرية

تساءلنا فيما سبق عن مصدر الصور الفكرية التى تتكون فى عقل الإنسان، فاستبعدنا أن يملك العقل مخزونا من هذه الصور - تكون قد خلقت معه - يستمد منها ما يريده ليضبط سلوك الإنسان ويقوِّم أخلاقه، وكان سبب الاستبعاد أنه يترتب عليه إلغاء إرادة الإنسان وإعفاءه من المسئولية، لأنه لا يعمل - لو كان هذا صحيحا- إلا طبقا لما يُمْلَى عليه، كما استبعدنا أيضاً أن يكون عنده من القدرة ما يمكنه من تكوين هذه الصور من لا شيء، لأن الله وحده هو القادر على الخلق من العدم. فإذا كان هذان الاحتمالان غير ممكنين، فمن أين يستمد العقل هذه الصور الفكرية التى تصدر عنه؟ يستمدها من البيئة فالإنسان يولد صفحة بيضاء، لم يرسم فيها خط، ولم تسطر فيها كلمة، ثم تبدأ الخطوط تتوالى عليه مما حوله، وتسطر المعلومات من الأحداث التى تجرى أمامه، فتنقلها حواسه إلى داخل جهاز الرصد الذى خلقه الله فيه. ومن أولى المصادر التى تمده بما يحتاج إليه فى هذا المجال: أبواه، فهما أول من تقع عليه حواسه المستقبلة، فتتلقف قواه الذهنية كل ما يصل إليه وتعيه، وتحتفظ به لتخرجه فيما بعد فى صور سلوك وألفاظ تنبىء عن طبيعة ما تلقاه، فإن كان طيبا كان سلوكه طيبًا، وأخلاقه حسنة، وألفاظه مهذبة، وتعامله مع الآخرين راقيًا، وقد عبر الرسول ﷺ عن التفاعل بين الوالدين وأبنائهما بقوله: « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه » فالفطرة فى هذا الحديث تعنى الصفحة البيضاء، فإن فسرها بعض العلماء بأنها الإسلام فلا تعارض بين التفسيرين، لأن الإنسان يميل بفطرته وطبيعته إلى الإسلام، ولا يبتعد عنه إلا إذا حجبت الأفكار الهدامة، والصور الفكرية المدمرة انعكاس ضوء الإسلام على صفحته البيضاء، أى لو خُلّى بين الإسلام وبين الإنسان دون تشويش على ذهنه، أو تلبيس على عقله لمال إلى اعتناق الإسلام بطبيعته.

وليس المراد حصر التأثير السلبى للأبوين على الأبناء فى التهويد والتنصير والتمجيس، بل كل ما يكون سيئاً بالنسبة للأولاد، وجاء ذكر هذه المعالم الثلاثة لضرب المثل للناس، كى يفهموا مدى تأثير الآباء على الأبناء. فالأبوان هما اللذان يشكلان شخصية الطفل، فجميع تصرفات الإنسان فى كل مراحل حياته تضرب بجذورها إلى ما تلقاه وهو طفل من أبويه وخاصة من الأم، لأنها تكون أكثر لصوقا به فى سنى حياته الأولى، ثم عندما يشعر بنوع من الاستقلال عنها، يصبح واجب الأب إزاءه أكثر من ذى قبل، فهو وإن كان له تأثير أيضاً – بجانب تأثير الأم – على الطفل منذ إدراكه، إلا أنه كلما تقدم الطفل فى السن، كلما ازداد تأثير الأب عن الأم، إلى أن يصبح المصدر الرئيسى في تلقى الصور الفكرية من بيئته الأسرية. ولهذا قال رسول الله ﷺ: « لاعب ابنك سبعاً، وأدبه سبعا، وصاحبه سبعا ثم اترك حبله على الغارب ». فالحديث يبين لنا طبيعة المراحل الثلاثة لتنشئة الإنسان، وما يجب على الوالدين إزاء كل مرحلة، فالطفل يحتاج فى السنى

الأولى إلى اللعب أكثر مما عداه، أى أن إمداده بالصور الفكرية ينبغى أن تكون فى صور يغلب اللعب على طابعها حتى يستسيغها الطفل فيعيها ولا ينساها، وتحفر فى مخيلته فلا تمحوها الأحداث التالية لهذه الفترة، فإذا انتقل إلى الفترة الثانية وهى فيما بعد السابعة حيث تكون قواه العقلية قادرة على الفهم والاستيعاب، وإدراك العلاقات بين الأشياء، فينبغى أن يتحول أسلوب التربية إلى نوع من الجدية حتى يشتد عوده، ويستقيم سلوكه، ويأخذ تعامله مع الآخرين طريقاً يستطيع فيه أن يقدر معنى الواجب والحق، والحلال والحرام والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وغير ذلك من القضايا التى تقوم عليها حياة المجتمعات. ولا ينسى الأب فى هذه المرحلة عدم التهاون فى بناء شخصية الأبناء وإن اقتضى الأمر استخدام الشدة معهم فلا يتردد فى ذلك، لأن التهاون فى هذه المرحلة ينتج عنه آثار لا يمكن إصلاحها فيما بعد، وغالباً ما نرى آباء خلطوا فى معاملة الأبناء بين المرحلتين الأوليين فعاملوا أبناء هم فى الأولى بالشدة والعنف فغرسوا فى نفوسهم الخوف والهلع، فلم يستطيعوا التخلص من هذه الظاهرة طول حياتهم، وتهاونوا فى المرحلة الثانية فلم يأخذوا على أيديهم عندما تبدو عليهم ملامح التمرد، أو يظهر فى سلوكهم نوازع الشر والعدوان فكانت نتيجة هذا استمراء الطفل هذا العمل، واستمراره فى هذا الطريق حتى يصبح الشر متأصلا فى نفسه والعدوان متمكنا منه، فلا يخرج من عقله إلا الصور الفكرية الشريرة التى تقود جوارحه إلى إيذاء الآخرين، الأمر الذى يؤدى

إلى تدمير نفسه بأى صورة من الصور. ومن هنا كانت هذه المرحلة هامة جداً فى حياة الإنسان، فعلى الآباء أن يدركوا هذا، فيبذلوا بعض الجهد مع أبنائهم ليساعدوهم على بناء شخصيتهم بناءً سليماً.

أما المرحلة الثالثة: فتتطلب نوعاً آخر من التربية، ذلك أنها مرحلة إثبات الذات، إذ يشعر المرء فيها بأنه خرج من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة، فتأبى نفسه أن يظل منفذاً للأوامر دون المشاركة فى صنعها، ويحاول التشبه بالبالغين، فيقلدهم فى كل عمل يرى أنه يضفى عليه صفة الاستقلالية، فيتمرد على كل ما يشعره بأنه لازال طفلا، ولذا كان الأنسب للأب فى هذه المرحلة أن يصاحبه حتى يتم تقويم سلوكه بأسلوب الصديق الناصح، وليس بطريقة الأب الآمر.

* * *

تأثير الاقارب والرفقاء

تناولنا فيما سبق أثر الوالدين فى تكوين فكر الإنسان، فبينا أنهما المصدر الأول فى تكوين الشخصية وتحديد معالم السلوك، وتشكيل المسلمات الأولية فى مجال الأخلاق، ولهذا تحملا مسئولية توجيه النشء فكرياً وعقدياً. ولما كان اتصال الإنسان بمن حوله لا يقتصر على الوالدين فقط، إذ كلما اشتد عوده، وقويت شوكته، ازداد استقلاله عنهما، وقرب من مصادر أخرى فى المجتمع، ينفعل ويتفاعل معها، ويؤثر وتؤثر فيه، فيتكون بذلك عنده صور فكرية أخرى يكون لها أثر فى سلوكه، وقد تشكل تعامله مع الناس بصورة تختلف عما يتلقاه من والديه وذلك إذا أهمل الولدان توجيهه وتقويمه فى عالمه الجديد.

ومن أولى الحلقات التى يتصل النشء بها بعد الوالدين أقاربه، وذووا رحمه الذين يتصلون بالأسرة فإن كانوا على خلق حسن يلتزمون الفضائل، ويتجنبون الرذائل. يتسم سلوكهم مع الآخرين بالرحمة، ويبدو على تعاملهم مع غيرهم العطف والسماحه. يتجنبون العنف ويبتعدون عن العدوان والظلم، قوى هذا الاتصال أسس الخير فى نفس الإنسان، إذ يمده بصورة فكرية سليمة، وتصورات ذهنية نقية، تساعده على الاستمرار فى طريق الخير، والبعد عما يسيئه ويدمر مجتمعه. أما إذا كان سلوك الأفراد المحيطين به من أسرته - أو بعضا منهم - غير سوى، فلا شك أن احتمال تأثره بهم يكون كبيراً، وقد يبلغ هذا التأثير درجة تقضى

على ما غرسه والداه فى نفسه من خير وحب للناس وعطف عليهم؛ بل قد يتحول سلوكه تحولا كليًّا إذا غفل الوالدان عما يحدث لأبنائهما من جراء اتصالهم بمن هم ليسوا على خلق طيب من أقاربهم المتصلين بهم.

ثم يأتي بعد هذه الفئة – التى تؤثر على النشء تأثيراً كبيراً وسريعاً، نظراً لقرابتها منه، وسهولة اتصالها به فى كثير من الأوقات – حلقة أخرى، وأفرادها: هم الجيران وأصدقاء الأسرة ورفقاء اللعب، إذ لا يمكن تجاهل تأثيرهم، أو إغفاله، ولهذا ينبغى على الوالدين ألا يقبلا صداقة، أو علاقة تزاور واتصال إلا مع من لا يخشون من سلوكهم – أو سلوك أبنائهم – على أولادهم، فلا يصادقون إلا من كان سليم التكوين، قويم السلوك، رفيع التعامل مع الناس، مهذب الأخلاق، مستقيما فى علاقته مع ربه، عطوفا على من حوله، لطيفًا مع كل من يقترب منه، إذ لا يصدر ممن كانت هذه صفاته إلا ما يغرس فى أذهان الآخرين صوراً فكرية، تضبط السلوك، وتهذب الأخلاق، وتحافظ على التقاليد والأعراف، وتقوى العقيدة، وتساعد على الالتزام بالواجب، سواء كان دينيا، أم دعت إليه ظروف الحياة ومعطيات العصر.

* * *

تأثير المؤسسات الثقافية

وليست هذه هى كل المصادر التى يستمد منها الإنسان الصور الفكرية التى تشكل حياته فى المجتمع، بل هناك ما هو أبعد أثراً، وأكثر قوة على توجيه الإنسان فى مجال النشاط الإنسانى، ألا وهو: المؤسسات الثقافية، وتحتل المدرسة المقام الأول فى هذا الجانب، إذ فيها يعرف الإنسان تجارب الآخرين ويتعلم الكثير مما حدث فى عصور لم يعشها، ويقف على أحداث لم يشاهدها. بل إن المدرسة – وكذا الجامعة والنوادى الثقافية. وما شابهها – تكاد تكون هى المكان الوحيد الذى تجدد فيه هوية الإنسان تحديداً واضحا، وتثبت فيه معالم مستقبله على نحو يصعب تغييره أو تعديله، ولهذا يجب أن يشترك فى وضع المناهج المدرسية: التربويون ورجال الدين، والاجتماعيون وخبراء العلوم التطبيقية والتجريبية ومهندسو التكنولوجيا بجميع فروعها، والفلاسفة وعلماء النفس والمؤرخون وخبراء المال والاقتصاد، حتى يراعى فيها العناصر التى تُكوِّن المواطن: دينيًا ونفسيًا، وتؤهله تأهيلاً عصرياً يمكنه من التعامل مع معطيات العصر، ومتطلبات حركة التغيير على جميع الأصعدة المادية والمعنوية، لأننا لو ركزنا على الجانب الروحى، والمعنوى فقط، لخرج المواطن من هذه المدرسة خياليا لا صلة لفكره بواقع الحياة، فيتخلف المجتمع عن ركب الحضارة والمدنية، ويقع فريسة الطامعين والمستغلين من الذين ملكوا زمام التقدم التقنى وسيطروا على كل مصادر الطاقة وينابيع التقدم

الحضارى ويؤمئذ لن ينفع المجتمع كثرة المرددين للنصوص الجوفاء، ولن تساعدهم الحكم والأمثال فى الصمود أمام التفوق الحضارى والتقدم التكنولوجى. كذلك لو خلت المناهج من الجانب الدينى، وتجردت من المعالم الأخلاقية لانحرف المواطن انحرافًا كليا إلى عالم المادة، وتصرف مع نفسه ومع الآخرين تصرف الحيوانات المفترسة، بل إنه بعقله وذكائه سيكون أشد فتكا من الوحوش الضارية، وأكثر شراسة من الحيوانات البرية، فلا يرحم صغيراً، ولا يعطف على ضعيف أو محتاج، ولا يوقر كبيراً أو صاحب فضل وعلم، لأن ما غرس فى ذهنه مادى بحت، فهو لا يتلقى منه إلى الصور المادية التى لا تهتم إلا بمقياس المكسب والخسارة المادية. وبهذا تتفكك عرى المجتمع، وتنحل أواصره، فتضيع العلاقات الإنسانية، ولا يكون المصير إلا الهلاك والدمار. فخلو المناهج من المواد التطبيقية والعلوم التجريبية، والمقررات التكنولوجية يعرض المجتمع لحظر الطامعين من الخارج، وإهمال المبادىء الدينية والتعاليم الشرعية فيها يؤدى بالمجتمع إلى تدمير نفسه بنفسه، أى يتحلل داخليًا، وذلك بطغيان الروح المادية على أفراده.

ويجب أن تأخذ المواد الثقافية التى تقدم فى المؤسسات الثقافية خارج المدرسة نفس الاهتمام المبذول فى وضع المناهج التعليمية وسوف نبين ذلك فى الفقرة التالية.

* * *

المؤسسات الثقافية خارج المدرسة

تلعب المؤسسات الثقافية دوراً هاماً فى تكوين فكر المواطن، فهى التى تشكل اتجاهه الفكرى، وتعمق ولاءه العقدى، وتقوى انتماءه الوطنى، إذ أن ما يتلقاه فى المدرسة من معارف نظرية، تقوم المؤسسات الثقافية خارج الممرسة بترتيبها، وتشكيلها، وتجسيمها فى صورة نشاط إنسانى فى جميع مجالات الحياة. فإن أدرك القائمون على هذه المؤسسات هذا الدور الهام فى حياة المجتمع، وكانت لديهم القدرة الفكرية، والاستعداد الروحى، استطاعوا أن يخططوا تخطيطاً سليماً، يستوعب طاقات الشباب العلمية والجسمية، فيوجهها إلى تطبيق ما تعلموه فى المدارس تطبيقا سليما، مع إثرائها بما لا يمكن الحصول عليه فى المدرسة، وتنميتها بالعديد من التجارب العلمية، حتى يكتمل نضجهم الثقافى، ويستوى سلوكهم فى الحياة العملية، وترقى أخلاقهم فى التعامل مع الآخرين، وذلك بإمدادهم بالخبرات العلمية، والتوجيهات التطبيقية، والتصورات المنطقية القابلة للتنفيذ فى مختلف الأنشطة الإنسانية.

أما إذا أسندت قيادة هذه المؤسسات إلى من لا قدرة له على استغلالها لتوجيه المواطنين فكراً وثقافة، وبنائهم جسماً وروحا، تبددت قوى المجتمع، فضاع ما غرسته المدرسة فى أذهان النشء وسط الخرافات والأساطير، وتبدلت معالمه بفعل رياح الفكر

الأجنبى، وتقوضت أركانه أمام التيارات الثقافية التى تهب عليه من كل جانب.

فإذا تمكن المغرمون بكل ما هو أجنبى من الوصول إلى مراكز التوجيه فى هذه المؤسسات فتلك هى الطامة الكبرى، إذ يستخدمون قدرتهم - وغالباً ما يكونون على جانب كبير من الذكاء - فى نشر الفكر الأجنبى والثقافة المستوردة، ويستغلون مكانتهم فى إضفاء السيادة والتفوق على التقاليد والعادات المستحدثة، غير عابئين بما يجر ذلك على المجتمع من زلازل واضطرابات تهز كيانه، وتفتت وحدته، وتضفى عليه ثوب الاغتراب الاجتماعى والثقافى، فيصبح عديم الهوية فاقد الذات، ويبحث عن جذوره فلا يجدها، لأن أعاصير الغزو الثقافى قد اقتلعتها، ويفتش عن منهجه الخاص فى الحياة فلا يعثر عليه، لأن بريق المستحدثات حجبته، ويتفحص معالم طريقه فلا يراها، لأن زوابع الدعاية المصاحبة أزالتها، فلا يلبث أن يسير مع الركب، ويصيح مع الصائحين، وبذلك يصبح المواطن فى هذا المجتمع إنساناً «عصريا» يتنكر لماضيه، ويدعو بدعوة جلاديه، ويناصر من اقتحم دياره، ومزق ثيابه، وهدم كيانه، وحطم هويته وأزال كل أثر له على مسرح الحياة.

وليست هذه دعوة إلى الانغلاق أمام كل ما هو أجنبى، فلا يمكن أن يقول بهذا عاقل يبتغى العزة لدينه، والخير لوطنه، بل هى صيحة فى وجه من نسى ماضيه، وتنكر لمبادئه، فاندفع إلى تقليد الأجنبى فى كل شيء حتى ولو كان مدمراً، وجرى وراء نفايات

الحضارة، لأنها تشبع شهوة غريزية عنده، أو تلبى مطالب وقتية لديه.

صيحة لتنبيه الغافلين ليفيقوا من غفلتهم فيشمروا عن ساعد الجد لتحصين الأمة ضد التيارات المعادية.

وبيان لمن اختلط عليه الأمر فظن أن ما يمارسه من أخلاقيات تقليدا للساقطين فى المجتمع الحضارى هو الأسلوب الذى يضفى عليه ثياب التقدم والمدنية.

بيان له بأن هناك فرقًا بين مقومات الحضارة ونفاياتها.

أما المقومات فهى: العلوم التطبيقية والتجريبية، كالطب والهندسة والكيمياء والطبيعة وما أشبهها، وكذلك التكنولوجيا بجميع فروعها. فلا حرج على أى إنسان فى أى منطقة فى العالم أن يغترف منها بقدر ما يستطيع وينقلها إلى وطنه بأى صورة من الصور، وبأى حجم يتاح له، فليس هناك حدود ولا قيود - بل كلما ازداد منها كلما ارتقى فى سلم الحضارة - لأنها لا تمس كيانه الشخصى، ولا تهدم ذاته، فليس لها تأثير سلبى على تقاليده وعاداته، كلما أنها لا تهدد عقيدته بما فيها من تعاليم وأحكام. أما النفايات فلا يأتى من ورائها إلا انحلال الأخلاق، ونشر الفاحشة، وتثبيت المنكر فى جنبات المجتمع، وتفكك الأسر، وبسط أجنحة الاغتراب الاجتماعى بين المواطنين.

وعليه فيجب على القائمين على التوجيه فى المؤسسات الثقافية أن يدركوا الفرق بين هذين النوعين من معالم الحضارة، فيعملوا على رسم الخطط التى تعمق الأول فى نفوس النشء،

وتنفرهم من الثانى، أو بمعنى أدق توضح لهم أن الحضارة الحقيقية هى ما كانت دعائمها: العلم والمعرفة فى مجالات البناء والتشييد، وأن الهلاك والدمار يصيبان الأمة عندما ينصرف المواطنون إلى الاستغراق فى الملذات والشهوات ويميلون إلى تقليد الأجنبى فيما هو بعيد كل البعد عن التأثير فى البناء الحضارى، وقد يكون من المعوقات التى تستنفد طاقات الأمة، فلا تجد بعد ذلك ما تبذله فى بناء أو تشييد.

فالاتصال بالفكر الأجنبى ضرورة فى مجال العلم، بل هو واجب كى لا تتخلف الأمة عن ركب التقدم، فإن تهاونت الأمة فى هذا الجانب ضعفت شوكتها ووهنت عزيمتها، فلا تقوى على الوقوف فى وجه من يطمع فيها، أو يتجرأ على اختراق حدودها.

أما فى مجال الثقافة النظرية التى تؤثر على التقاليد والعادات ذات الصلة بالعقيدة فلا ينبغى أن تفتح لها الأبواب، بل تغلق بإحكام حتى لا يتسرب إلى المجتمع ما يؤثر على عقيدته، أو يهدد تقاليده وعاداته. لأن كيانه يبقى متماسكا مادام السلطان لعقيدته، وتصان ذاته بمقدار رسوخ التقاليد الأصيلة فى حياة المواطنين، وتمكن العادات الحسنة ذات الأثر الجيد فى أخلاق الناس ومعاملاتهم.

ولكن ما هى المؤسسات الثقافية التى يمكن من خلالها تطبيق هذا المنهج؟

* * *

أولاً : الجانب الروحى :

ذكرنا فيما سبق أن المؤسسات الثقافية تلعب دوراً كبيراً وهاما فى تكوين شخصية المواطن، بل يكاد يكون هذا الدور هو المحور الرئيسى فى بناء حياة المجتمع فى جميع جوانبه، وهى تنقسم إلى قسمين: قسم يغلب عليه الطابع التعليمى، ويتمثل فى المدارس والجامعات ودور العلم ذات المراحل المحددة، وقد تناولناها بالشرح والبيان. أما القسم الآخر فهو ما يتميز بطابعه الثقافى العام، ولا ينحصر هذا النوع فى شكل معين أو طابع محدد ، بل كل ما يمكن أن يدلو بدلو فى مجال الثقافة، أوله تأثير واضح على شكل الحياة فى المجتمع، فهو من المصادر الثقافية التى تسهم فى بناء المواطن وبالتالى يكون لها حضور فى توجيه تيارات النشاط الإنسانى فى المجتمع. ومن هذه المصادر: النوادى الثقافية والرياضية، الجمعيات الخيرية والاجتماعية، المجالس والمنتديات، وسائل الإعلام بجميع أنواعها : دور الطباعة والنشر، والصحف والمجلات، الإذاعة ووكالات الأنباء، التليفزيون ونوادى الفيديو، وما شابهها من المصادر التى تقدم المعلومات للإنسان، إذ تتأثر أخلاقه وسلوكه بنوع المعلومات التى يتلقاها من هذه المصادر، وتتلون حياته طبقاً للقالب اللغوى الذى صبت فيه الصور الفكرية، وتتشكل علاقاته مع الآخرين على النحو الذى يوحى به

مضمون ما يصدر من هذه المؤسسات من معلومات وتوجيهات فكرية.

ولهذا يجب أن تحاط برامجها ولوائحها وأنظمتها بسياج يمنع تسرب ما يسيء إلى الفرد أو يهدد كيان المجتمع، وأن يلاحظ ما يدور فيها من أحاديث وما يقام فيها من أنشطة، بحيث توجه التوجيه السليم، حتى يكون إسهامها فى تكوين فكر المواطن إيجابيا، إذ يجب أن يغرس فيه احترام التقاليد البناءة، والالتزام بالعادات الحسنة، والحرص على تأدية الفرائض الدينية، وتجنب كل ما من شأنه أن يثير مشاعر الناس، ويبعث الاشمئزاز فى نفوسهم، والبعد عن الدنايا التى تخدش الحياء وتجرح الكرامة، ومع تنمية حب الانتساب إلى الجماعة، وتقوية غريزة الانتماء إلى الوطن، بحيث يتكون عنده الاستعداد الكامل للدفاع عنه بكل ما يملك حتى تدفعه مشاعره إلى بذل حياته فى سبيل الذود عنه وبالتالى يميل بكل جوارحه إلى العمل بأقصى ما يمكنه فى مجالات العمل، كى يرقى المجتمع وتتقدم الأمة، فتصبح على قدر من القوة والمنعة بحيث تكون قادرة على الشموخ بأبنائها بين الأمم، والاعتزاز بما ينتجه أفرادها فى مجالات الإبداع والاختراع، وبما يسهمون به فى المجال الإنسانى.

ولا يتحقق هذا بالصورة الكاملة إلا إذا كانت السيادة فى مجال التوجيه للدين لأن الإنسان يميل بفطرته وطبيعته إلى التدين، فإذا كان توجيهه منسجما مع فطرته وموافقا لطبيعته،

تجارب بشكل أسرع، وتقبل ما يلقى إليه بصورة أحسن، فيصبح التفاعل بينه وبين مصادر المعلومات، ومنابع الصور الفكرية كليا، إذ لا يتناقض فى أى جانب من جوانبه، ولا يتنافر مع أى جزء من جزئياته، بل يكون التجاوب متطابقا، فينطبع الإنسان انطباعا كاملا بما يتلقى من توجيهات، ويبذل أقصى ما فى وسعه لتطبيقها فى حياته العملية، لأنه يشعر بأنها جزء من كيانه، فكلما أحس بها فى سلوكه وتعامله مع الناس، ازداد شعوره بكينونة الذات، فيدفعه ذلك إلى السعى فى تحصيل المزيد من المعلومات، وكذلك إلى الحرص على ترجمتها إلى واقع عملى فى صورة عمل لخدمة وطنه وأمته.

وقد يفهم بعض الناس من سيادة الدين أن يقتصر عمل هذه المؤسسات على إلقاء الخطب والمواعظ الدينية، وألا تشتمل برامجها إلا على الكلمات التقليدية التى نسمعها من الوعاظ، أو تنشرها الصحف فيما يطلقون عليه الصفحة الدينية. ولا شك أن هذا خطأ فى التصور، لأن النصائح والمواعظ الدينية إذا زادت عن الحد كانت من العوامل المنفرة، فلا يقبلها السامع بل يعرض عنها، وقد يتحول بهذا النفور إلى البعد كلية عن سماع كل ما يوهم أنه موعظة دينية. فالتوجيه الدينى لا يكون مؤثراً إلا إذا كان غير مباشر، وبشرط أن يكون على فترات، ولهذا جاء فى الأثر أن الرسول ﷺ كان يتخول الصحابة بالموعظة، أى يلقيها على فترات، وفى ثنايا الأحداث. فإذا أردنا تطبيق هذا الاتجاه فى

حياتنا، فيجب أن تكون برامج المواد الثقافية متنوعة: محاضرات دينية وعلمية، بحيث تربط الأحكام والتشريعات الدينية بواقع الحياة، أى لا ينفصل الواعظ فى أحاديثه وموضوعاته عما يجرى فى مجتمعه، بل يجب عليه أن يحلل الأحداث من الجانب الدينى، ولا ينسى عدم التضييق على الناس، فيأخذ فى الاعتبار أن الدين يسر لا عسر، فلا يتتبع الآراء المتشددة التى تزهق الناس فى حياتهم، بل يجب أن يلجأ إلى آراء المرخصين، إن كان فى ذلك تسهيل للناس وتخفيف عليهم، وينبغى ألا يطغى هذا النوع من الدروس على الجانب العلمى بكل فروعه، فيفسح المجال للمعلومات العلمية، لأنها لا تقل أهمية عن الدروس الدينية، بل إنه يمكن بواسطتها تعميق الجانب الروحى فى الإنسان، وتثبيت العقيدة فى قلبه، وذلك من خلال ما يعرفه من أسرار الكون وعجائب الخلق، فإذا كانت الدروس الدينية وسيلة لتنقية الروح وتصفيتها من الشوائب المادية، فإنه يمكن أن تكون المواد العلمية - لو أحسن عرضها - أبلغ أثرا فى نفس الإنسان دينيا، إذ بواسطتها يتوصل الإنسان إلى معرفة الخالق بصورة آكد وأبلغ مما يصل إليه عن طريق الدروس الدينية النظرية. ولا يقتصر الأمر فى مجال خدمة العقيدة على المعلومات العلمية، بل إن ما يبدو للبعض أنه عبث وجهد ضائع - كالرياضة بجميع أنواعها - لا يخرج عما تحث عليه التعاليم الدينية.

* * *

ثانياً : الجانب المادى:

يظن بعض الناس أن سيادة الاتجاه الدينى تقضى على كل الأنشطة الرياضية الترفيهية، إذ يعتقدون أن هذه الأنشطة لا تتفق مع طابق التقوى، وسمات الصلاح التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان، إذا أراد أن يرضى ربه، ورغب فى الاسهام فى بناء مجتمع دينى، يتخذ التعاليم الشرعية منهاجا له فى الحياة، والقانون السماوى أساساً لنظمه ومؤسساته، بل إن البعض منهم بلغ حد التطرف فى الحكم على ما يمارسه الإنسان من هوايات بريئة، لا يترتب عليها ضعف فى العقيدة، ولا إهمال فى الواجبات الدينية، ولا فساد فى الأخلاق، ولا ضياع للتقاليد والعادات، فهى تمارس لتقوية الجسم، وتصفية الروح، وتنقية النفس من الهموم والأكدار، وتهدئة الأعصاب من ثقل أحداث الزمن، وضغوط متطلبات الحياة . .

إن حكم بعض رجال الدين على الأنشطة الرياضية بأنها عبث ولهو ينبغى على من يتقى الله اجتنابها والبعد عنها، ينافى الشرع، ويتصادم مع منطق العقل، ذلك أن التشريع الاسلامى لا يتصادم مع ضرورةمن ضرورات الحياة، فلم يطلب من الانسان كبت غريزة طبيعية. خلقها الله فيه، بل رسم منهجا سليما لإشباع كل الغرائز، بحيث لا يتعذب الانسان بالحرمان، ولا يدمر نفسه بالإفراط والتسيب، بل يمارس ما يحتاج إليه بدنه وجسمه، بجانب ما يقوم به من عبادات تنقى قلبه وتصفى روحه، فقد ورد أن رسول الله ﷺ بين للناس أن للبدن حقا على الإنسان، كما

وضح أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، لأن ضعف المؤمن جسمانيا يشل حركته، فلا يستطيع أن يؤدى ما عليه من واجبات إزاء مجتمعه، بل إنه قد يبلغ به الضعف درجة يعجز معها عن تأدية الواجبات الدينية. فقوة الجسم ضرورية لحياة الانسان، سواء كان ذلك على الصعيد الدينى، أو على مستوى حياته المعيشية، ففى المجال الدينى لا يقوم بتأدية الفرائض إلا من كان قادرا عليها، فان عجز بدنه، وهنت عزيمته، وتلاشت همته، فلا يستطيع القيام بما هو مفروض عليه أداؤه فى مجال العبادة، كذلك فان الجسم الهزيل لا يقدم لأمته ما تحتاجه منه، بل سوف يكون حملا ثقيلا عليها، ليس فقط من ناحية أنه لا يقدم لها شيئا فى مجال البناء والتقدم، بل إنه يأخذ الكثير من جهد الآخرين، لأنه يحتاج إلى من يعينه ويرعاه.

وبذلك تضعف الأمة وتتبدد قواها، فيطمع فيها الطامعون، ويستسهل الاعتداء عليها المغامرون، ويتسابق إلى التهامها المتربصون، وما ذاك إلا لأنها تهاونت فى إعداد أفرادها بدنيا لملاقاة من يفكر فى الاعتداء عليها. ومما يدل على أهمية إعداد أفراد الأمة بدنيا، وتدريبهم جسمانا حتى يكتسبوا لياقة بدنية تمكنهم من القيام بما يطلبه منهم المجتمع، وتعينهم على مواجهة متطلبات الحياة أن رسول الله ﷺ دخل يوما ساحة التدريب، فخلع نعليه، ثم قال: « روضة من رياض الجنة » أيوجد أبلغ من هذه الإشارة فى بيان ضرورة العناية بالجسم، والحرص على ممارسة الرياضة البدنية، ليرفع المرء من قوته وطاقته الجسمية، كى يكون على

استعداد لتقديم ما يطلب منه عند الحاجة؟ ولا ينبغى أن يفهم أحد أن ما كان فى الساحة ليس إلا تدريبا على القتال، لأن الانسان لا يستطيع الرمى بآلة الحرب إلا إذا كانت قوته الجسمية على درجة عالية، وكلما ازدادت اللياقة البدنية رفعة، وقوى تحمل الجسم على أداء الأعمال الشاقة، ارتفع أداء الانسان فى مجال المعركة. فالعناية بالجسم من أهم عناصر التدريب على المعركة، وبناء عليه فهى ضرورة دينية واجتماعية، بل إن درجة التفكير نفسه تتعلق بسلامة الجسم، ومتانة بنيانه، فقد قيل: «إن العقل السليم فى الجسم السليم».

إن الرياضة البدنية بجميع أشكالها وألوانها وأنواعها مطلب حتمى فى حياة الأفراد، والمجتمعات، ولهذا لم يحرمها الاسلام، بل حث المسلمين على ممارسة كل مامن شانه أن ينمى قوة الجسم، ويطور طاقاته، حتى يكونوا أصحاء قادرين على تأدية ما يفرضه عليهم دينيا، وما يطلبه منهم اجتماعيا، وما يكلفون به فى مجال بناء المجتمع والدفاع عنه، والزود عن حياضه، تأمينا للعقيدة، وصيانة للتراث، وحفظا لحياة الناس وممتلكاتهم. ولا يتحقق ذلك إلا إذا وضعت المؤسسات الثقافية - سواء على المستوى الرسمى، أو فى نطاق الجهود الفردية والشعبية - برنامجا يهيء لكل فرد فرصة ممارسة ما يميل إليه من أنواع الرياضة التى تساعده على بناء جسمه بناء سليما، وتنمية طاقاته البدنية..

وفى الوقت نفسه تطعمه بما يعوده على السلوك الطيب، والمعاملة الحسنة، ويغرس فى نفسه روح التعاون والعطف على

الآخرين، ويقضى على روح الأنانية عنده، فلا يسلب أحدا حقه، ولا ينسب إلى نفسه ما ليس له، ولا يتذمر من إعطاء كل ذى حق حقه، بل يعترف بذلك حتى ولو كان مؤلما لنفسه، ومخيبا لآماله..

فإن استهدفت البرامج الرياضية تحقيق هذه المعانى، فقد حققت ما يريده الاسلام من المجتمع المسلم، وعليه فيجب على كل مسلم أن يدعمها ويدعو الى تنفيذها امتثالا لأمر رسول الله ﷺ فيما روى عنه أنه قال: علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» فليس المراد من الحديث قصر أنواع ما يجوز ممارسته على هذه الأنواع الثلاثة، بل الأمر يشمل كل ما يؤدى الى تقوية الجسم وتنمية طاقاته، لأن الرسول ﷺ ذكر ما كان شائعا من أنواع الرياضة فى ذلك العصر، فلو وجد غيرها لنص عليه فى حديثه..

* * *

هذا خلق الله

خلق الله كل كائن حى ومعه من أجهزة الحماية ما يمكنه من مقاومة أحداث الزمن، وتقلبات الطبيعة، إذ أنه أودع فيه من العوامل الفسيولوجية ما يقاوم به عوامل الفناء، ويتصدى لأى معتد في أى جزء من أجزاء الجسم، فهناك في الدم ما يصارع كل ما يفسد الجسم، أو يضعف قوته، وفى الخلايا ما يساعدها على التجدد المستمر، حتى لا يتحلل الجسم وينهار.

ظل الناس غافلين عن هذه النعم الكبرى التى أنعم الله بها عليهم، فلم يتصوروا مقدارها، ولم يدركوا مدى أهميتها لحياتهم، حتى ظهر ما يعرف بمرض «الايدز» وهو الذى يصيب أجهزة الدفاع فى الجسم فيمنعها عن تادية وظيفتها، فيترك الجسم كلأ مباحا لكل الجيوش المهاجمة، ترتع فيه دون أى مقاومة حتى يخر صريعا..

لقد انتشر الرعب فى العالم عندما أميط اللثام عن هذا المرض، ويزداد خوف الناس كلما بثت وكالات الأنباء خبرا عن موت واحد هنا أو هناك أو نشرت وسائل الاعلام إحصائية عن عدد المصابين، أو تحليلا عن الطريقة التى ينتقل بها من شخص إلى آخر. وكلما زاد عدد المصابين أو ارتفع عدد الضحايا ارتفعت الأصوات تحث الباحثين والعلماء على الاسراع فى البحث عن أسباب هذا المرض، وسرعة التوصل إلى ما يقضى عليه حتى يهدأ

الناس ويذهب خوفهم الذى يكاد أن يقضى على بعضهم قبل أن يصيبه المرض.

لفتت هذه الظاهرة نظرى فدفعتنى إلى التفكير فى الله، وفيما أنعم به على الإنسان من نعم لازال بعضها بعيداً عن إدراك الناس وتصوراتهم: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾، فقد خلق الله الإنسان على نحو يجعله فى حماية عما حوله ويصونه مما يهاجمه، فخلق فيه أجهزة دفاع داخلية، لا يعلم الإنسان منها حتى الآن إلا القليل، على الرغم من ادعائه أنه وصل إلى درجة من العلم مكنته من معرفة كل ما يتركب منه جسمه. كذلك مكنه من استخدام ما حوله لمقاومة عوامل الفناء، إذ وجهه بطريقة تلقائية إلى تناول أنواع المأكولات والمشروبات التى تساعده على النمو، وتحميه من الأمراض، وتمده بكل ما يلزمه لبقائه واستمرار وجوده، فإذا نظر المرء إلى مجهوده فى هذه العملية، يجد أنه لا يقوم فيها إلا بالقدر الضئيل جداً، على الرغم من أنها تستغرق نشاط الإنسان كله تقريباً، إذ لا يتعدى عمله تهيئة الطعام والتهامه، وبذلك تنتهى مهمته، لتبدأ مهمة الأجهزة التى أودعها الله فيه لهضمه وامتصاص ما يحتاج إليه الجسم، وتحويل ما يفيض عنه – سواء كان بذاته أو بتحويله إلى مواد أخرى – إلى المخزن الذى أعده الله فى الجسم لحفظ ما يزيد عن الحاجة كاحتياطى يستمد منه الجسم ما يحتاج إليه عند اللزوم.

هذه العملية المعقدة التى هى أهم شىء فى تغذية الجسم، ومده بما يساعده على البقاء هى من صنع الله. فلا دخل للعبد

فيها، إذ خلق الله أجهزتها على نحو يجعلها تعمل تلقائيا دون تدخل إرادة من ركبت فيه فى عملها، فعملية الهضم والتمثيل الغذائى، وما ينتج عنها حتى إخراج الفضلات عملية لا إرادية، تعمل أجهزتها بما أودعه الله فيها من طبيعة تسيرها فى الطريق الذى رسمه الله لها، وليس على المرء سوى إمدادها بالخامات التى تحتاج إليها، ألا وهى الطعام والشراب، ولهذا لم يحرم الله على الإنسان طعاماً فيه فائدة له، ولم يحل منه شيئاً إذا كان فيه ما يدمر هذه الأجهزة أو يعطلها عن تأدية عملها على الوجه الأكمل، حتى يظل الإنسان على قيد الحياة سليما.

الجانب النفسى:

ولا يحتاج الإنسان فى حياته إلى الطعام فقط، بل تحتاج أجهزة جسمه إلى أشياء أخرى، ومن أهم ما يحتاج فيه إلى إمدادات خارجية: الجهاز العصبى، إذ لا تستقر الحياة إلا إذا كان الجهاز العصبى متزنا، لا توتر فيه ولا اضطراب، بل إن من أهم ما يساعد الإنسان على العمل، ويهيىء له القدرة على الانتاج أن تكون أعصابه فى حالة طبيعية، أو كما يقولون: أن تكون نفسيته مرتاحة وأعصابه هادئة، فإذا توترت أعصابه، واضطربت نفسه احتاج إلى ما يعيد إليه توازنه. ومما لا شك فيه أن تهدئة النفس وتسكين توتر الأعصاب لا يكون بالطعام والشراب، لأن غذاء النفس والأعصاب ليس ماديا، بل روحيا، إذ الأعمال الروحية هى التى تساعد على تصفية الروح من الشوائب المادية، وتنقيتها من رواسب النشاط الإنسانى فى عالم المادة، وتطهرها من أدران

المحسوسات المنغصة وتخفف عنها أثقال الهموم، وأحمال الأحزان..

ولما كان غذاء الجسم أصنافا عدة من الطعام والشراب، فكذلك ما يحتاج إليه الإنسان فى الجانب النفسى: عناصر متعددة من الغذاء الروحى. منها ما هو دينى مقدس: ويتمثل ذلك فى أداء العبادات المفروضة، إذ ترتاح النفس المؤمنة وتطمئن بعد أن ينتهى الإنسان من تأدية ما عليه من واجبات. وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا المعنى حين قال: «للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه».. إذ أن نفس الصائم ترتاح عندما يتم صيامه ، فيهدء باله، وتستقر نفسه. أما إذا أهمل فلم يؤد واجب العبادة، فإن الندم يقلقه، ويؤرق عليه حياته، فلا يهدأ، ولا يشعر براحة لإحساسه بالتقصير فى هذا الواجب. وكذلك الشأن فى كل العبادات، إذ يشعر المرء بارتياح نفسى بعد فراغه من تأدية أى واجب دينى، سواء كان صلاة أم صياما أم زكاة أم حجا أم عملا آخر من أعمال الخير..

* * *

لا غلوّ ولا تفريط

تحدثنا فيما سبق عما يحتاجه الإنسان لاستمرار حياته، فذكرنا أن الطعام والشراب لا يمد الإنسان إلا بالطاقة الفيزيقية، ويبقى محتاجاً إلى أشياء أخرى تمده بما يضبط به مسيرة حياته فى الجانب النفسى والروحى، إذ للنفس غذاء يختلف عن غذاء الجسم، وللروح «طعام» من نوع آخر، ويأتى من مصادر أخرى غير مصادر غذاء الجسم.

وكما أن غذاء الجسم أنواع متعددة، فكذلك لغذاء الروح والنفس طرق شتى: منها تأدية الواجبات الدينية، وتلبية نداء الخير سواء كان مصدر النداء النصوص المقدسة، أم مسلمات ارتبطت فى ذهن الإنسان بجوانب الخير فى المجتمعات الإنسانية. فآمن بها، وحرص على الالتزام بها، إذ تشعر النفس بارتياح عظيم عندما يطابق سلوك الإنسان ما بداخله من مبادئ ومعتقدات ويطمئن القلب كلما اختفى التنافر بين أعمال الجوارح وبين ما غرس فى داخل الانسان من قضايا كلية تتعلق بنظم الحياة وعلاقات الناس بعضها مع بعض. ولهذا يشعر المرء بارتياح نفسى كبير بعد أداء العبادات ويحس بارتياح داخلى كلما قدم المساعدة للمحتاجين، أو بذلك جهداً فى سبيل أمته، لدرجة أنه يسترخص حياته فى سبيل تأدية الواجب الذى آمن به، بسبب ما يبعث ذلك فى نفسه من ارتياح لا يحس به إلا من خاض التجربة، ومن هنا احتل هذا الجانب جزءاً كبيراً من تعاليم الأديان، واهتم به دعاة الإصلاح

وزعماء الشعوب، وقادة الجند لدفع الإنسان ذاتيا إلى بذل أقصى ما يمكنه لتحقيق ما رسموه من أهداف.

وكما يحتاج جسم الإنسان إلى عناصر مختلفة من الطعام والشراب حتى يلبى الاحتياجات المتعددة، فكذلك ينبغى أن تتنوع المادة التى تنشط النفس، وتزكى الروح، وتريح الأعصاب، لأننا لو اكتفينا بتقديم نوع واحد إلى الإنسان لحصل له إشباع فى هذا الجانب. وربما حدث عنده نوع من الرفض، فلا يتقبل ما يعطى له، بل قد ينفر منه ويفر إلى حيث لا يسمع ولا يدرك ما يقدم له فى هذا الجانب، فلو زادت جرعة الوعظ أو أفرط فى ممارسة العبادات، فلربما تغيرت نفسيته فنفرت من سماع كل ما يمت إلى الوعظ بصلة.

أدرك النبى ﷺ هذا الجانب فى الإنسان، فكان لا يثقل على أصحابه بالمواعظ، وإنما كان يتخولهم بالموعظة، كما ورد فى أقوال الصحابة عن طريقة وعظه، إذ كان لا يطيل فى الخطبة، ولا يكثر من إلقاء الكلمات كثرة تنفرهم أو تصيبهم بالملل، بل أنه نهى عن الغلو فى كل شىء، حيث قال: «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى» لأن الغلو فى الشىء غالبا ما ينقلب إلى ضده، فلو أسرف المصلحون أيضاً فى نصائحهم، وأكثر الوطنيون فى كلماتهم وتوجيهاتهم، لأصيب الناس بالملل، وقد يصل بهم الأمر إلى كره كل ما يتعلق بأمور الإصلاح، أو يرتبط بأوطانهم فالاعتدال واجب للمحافظة على اتزان الإنسان وهدوئه، وارتباطه بهذا النوع الذى يحتاج إليه فى حياته.

ولكى تقضى على هذا الملل الذى قد يصيب الإنسان من الإكثار والمبالغة فيما يقدم إليه من هذا النوع، ينبغى أن نقدم له نوعاً آخر، له أثر واضح فى اطمئنان النفس وهدوئها، واعتدال المزاج وسكونه، وتصفية الروح ونقائها، الا وهو الترويح ولا يقتصر الترويح على نوع معين، بل يشمل كل ما من شانه أن يريح الأعصاب مادام لا ينتج عنه آثار سيئة، تصيب الإنسان بأذى، أو تهدد نظام الحياة فى المجتمع. ومن أشهر أنواع الترويح: الموسيقى والغناء، إذ أن لهما أثراً كبيراً فى إزالة توتر الأعصاب، ورفع الأثقال عن كاهل الإنسان بعد عمل شاق، وتخفيف ضغط مطالب الحياة عن أولئك الذين تجرفهم الحياة المادية إلى تيارات ترهق أعصابهم ، فيخيم الخمول على ذهنهم، ويتمكن الملل من نفوسهم، ولهذا لم يحرمها الإسلام، لأنه لا يمكن أن يحرم شيئاً فيه هذه المنفعة للإنسان، وما ورد من أحاديث تفيد تحريم المزمار أو الغناء، فلا تخرج عن كونها أحاديث ضعيفة أو مشكوك فى صحتها، أضف إلى ذلك أنه قد ورد أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل على رسول الله ﷺ فوجد جاريتين تغنيان فنهرهما قائلا: أبمزمار الشيطان فى بيت رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: « دعهما يا أبا بكر، نحن فى أيام عيد ». كذلك ورد أنه سأل عائشة يوما عن سبب غيابها عن البيت فأخبرته بأنها كانت فى عرس، فسألها عما إذا كان فى هذا العرس دفوف فنفت ذلك، فقال لها: « اضربوا الدفوف فإن الأنصار يحبون الضرب على الدفوف » ولما كانت الدفوف هى الآلة الموسيقية فى ذلك العصر، فقد دل ذلك على

جواز العزف على أى آلة موسيقية لأنه لو كان هناك غيرها لذكره رسول الله ﷺ. أضف إلى ذلك أن الله لم يحرم شيئاً إلا إذا كان فيه ضرر على الفرد أو المجتمع.. وطبقا لهذه القاعدة فإن العزف والغناء وسماعهما من الأمور الجائزة بشرط ألا يترتب على ذلك إهمال فى واجب، ولا يؤدى إلى فساد فى الأخلاق.

وخلاصة القول أن الإنسان يحتاج إلى ما يروح به عن نفسه حتى لا يصاب بالملل والاكتئاب. ويجوز له أن يلجأ فى ذلك إلى العزف على الآلات الموسيقية أو الغناء أو سماعها مادام لا يؤدى به ذلك إلى التفريط فيما هو مفروض عليه، ولا يثير غريزة عنده، ولا يدفعه إلى التفكير فى ارتكاب فاحشة. ومادام الأمر كذلك فيجوز أيضاً احتراف هذه المهنة بشرط أن يلتزم بأخلاقياتها الإسلامية، فلا يمارسها بطريقة مسفة أو بأسلوب يثير كوامن الشهوة، أو يؤدى إلى ارتكاب فاحشة، فإن التزم بذلك، فلا حرج عليه، بل إنه يؤدى مهمة للإنسان وللمجتمع لا تقل عن مهمة من يعمل فى مجال إعداد الطعام والشراب للناس، لأنه يقدم لهم أيضاً غذاء يساعدهم على استمرار العطاء للمجتمع الإسلام.

* * *

الثقافة والتهذيب

بينا فيما سبق أن الإنسان يحتاج إلى ما يمده بالطاقة لاستمرار حياته، ويتمثل ذلك فى الطعام والشراب، فهما من العناصر التى تحفظ حياته فلا يتعرض للهلاك والموت، وتولد فيه قوة تمكنه من الاستمرار فى النشاط والحركة. كما يحتاج إلى ما يحفظ توازنه، فيخفف عنه اضطراب النفس، ويزيل منه توتر الأعصاب فلا يضطرب سلوكه، ولا تثور انفعالاته، ولا يتحرك عشوائيا بين أقرانه، فيكون متزنا فى كل ما يمارسه من نشاط، فلا يتخبط دون هدف، ولا يتحرك دون خطة ولن يحقق له ذلك طعام ولا شراب مهما علت قيمته، وارتفعت نوعيته، بل يحتاج فى ذلك إلى غذاء روحى، وطعام، لا يدخل من الفم، بل طريقه إلى داخل الإنسان هو السمع والبصر والاحساس والشعور. فذلكم هى المنافذ التى يجتازها كل ما يتعلق بالأعصاب والنفس والروح، فان كان ما يمر بها أصوات منكرة، وضوضاء مثقلة بالنغمات الشاذة والألحان المنفرة، توترت الأعصاب واضطربت النفس، وترنحت الروح، فتعشى العين، فلا يرى المرء طريقه، ويفقد الإنسان القدرة على التركيز، فيطيش نشاطه خارج الهدف الذى يريده، وتكون النتيجة إحباط مستمر، ويأس قاتل، فتضيع الآمال وتتبخر الأمانى.

أما إذا وضحت احتياجات الجسم أمام الإنسان فعرف أنه كما شعر بالغريزة أن الطعام والشراب يساعده فى التغلب على

ما يضعف الجسم أو ينهكه، تبين له أيضاً بالثقافة والمعرفة أنه يحتاج إلى ما يبعث الطمأنينة فى نفسه، والاطمئنان لروحه، والراحة لأعصابه، فحرص على توفير ذلك لنفسه عن طريق تأدية الواجب سواء كان دينيا أم دنيويا ومارس كل ما يحقق له ذلك، سواء كان هذا فى مجال الرياضة أم فى آفاق الخدمة العامة لوطنه ومجتمعه، واستمتع بما يحقق له التوازن الداخلى، والهدوء النفسى والروحى، سواء كان ذلك بالاستماع إلى الموسيقى والغناء، أو بمشاهدة الفنون التى تحقق له هذا الهدف، سواء كان ذلك فنونا تمثيلية أو تشكيلية، أو غيرها مما يؤثر تأثيراً إيجابيا فى نفس الإنسان وروحه، وبالتالى فى حياته وانشطته فى جميع المجالات..

وليس هذا كل ما يحتاج إليه الإنسان لتنظيم حياته وتقويم سلوكه، بل هناك ما هو أهم من الطعام والشراب، وألزم لحياة الإنسان من الترفية والترويح، ألا وهو الثقافة لأن تأثيرها لا يقتصر على جانب واحد، فلا يختص فقط بتزويد الجانب الروحى فيه بل يتعداه إلى التأثير فى الجانب المادى أيضاً، بل لا يقل تأثيرها فى الجانب المادى عنه فى الجانب الروحى..

فما المقصود من الثقافة؟..

تطلق كلمة الثقافة فى اللغة ويراد بها عدة معان، فقد ورد فى الاستعمال: ثَقِف الشىء: تعلمه بسرعة. وثقفت الشيىء: حذقته. وفى الحديث: « هو غلام لقن ثقف »، أى ذو فطنة وذكاء.

والثقيف: الحاذق: الحاذق الفطن. وتقول العرب: ثقفته أي ظفرت به، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾.

وتستعمل مادة ثقف ويراد بها أيضاً: المصادفة، قال تعالى: ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ وقال: ﴿ **أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً** ﴾ واستعملت كلمة الثقافة. كاسم للأداة أو الحديدة التي تسوى بها الرماح، فهي تدل على ما يقوم به الشيء، وعليه فالتثقيف: هو التسوية والتقويم.

هذا هو استعمالات كلمة الثقافة في اللغة، ومنه يمكن أن تُفهَم الثقافة على أنها التهذيب العقلي، والتربية النفسية والخلقية والاجتماعية. ولم تستعمل كلمة الثقافة في المجتمع الإسلامي بهذا المعنى إلا في مطلع هذا القرن، إذ كثر ترددها على الألسنة وأطلقت على كثير من المؤسسات التربوية والتعليمية، وسميت بها بعض الهيئات التي تهتم بالتراث والآثار القديمة، إذ لا تكاد تخلو بلد من وزارة للثقافة، أو مؤسسة للثقافة والعلوم، أو هيئة للتربية والثقافة، وغير ذلك من الأنشطة التي تعنى بما خلفته الأجيال الماضية في مجال الدين والأخلاق والتقاليد والعادات والقيم والمبادىء..

فمن أين أخذت هذه الكلمة، وكيف تطور استعمالها؟

وردت إلينا هذه الكلمة من أوروبا عبر موجة التقليد التي اجتاحت العالم الإسلامي فهي كلمة مترجمة من الكلمة اللاتينية « **Culture** ».

وكانت تستعمل فى لغتها الأصلية فى مجال الزراعة والعناية بالأرض، ثم استعيرت للتعبير عن الواقع الاجتماعى والدينى، وعندئذ نشأ مفهوم لهذه الكلمة يختلف عن المفهوم القديم، وتطور بتطور العلوم الإنسانية والنفسية والاجتماعية.

ويعنينا هنا ما توصل إليه بعض التربويين فى تحديد معنى الثقافة، حيث قالوا: هى مجموعة الأفكار والمثل والتقاليد والعادات والمهارات وطرق التفكير وأساليب الحياة والنظام الأسرى. وتراث الماضى بقصصه ورواياته وأساطيره وأبطاله، ووسائل الاتصال والانتقال وطبيعة المؤسسات الاجتماعية فى المجتمع الواحد.

ومن هنا تختلف كلمة ثقافة فى استعمالها المعاصر عن كلمة «علم» إذ تطلق كلمة العلم على المعرفة التى تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة، والاستنتاج كعلم الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم التجريبية. أما الثقافة فتتعلق بالعلوم الإنسانية التى لها صلة بالدين والعادات والتقاليد. ومن هنا جاء اختلاف نظرة المسلم إلى الثقافة وموقعه من مصادرها.

كيف ذلك؟

* * *

العلم والثقافة

كانت كلمة « العلم » فيما مضى تطلق ويراد بها جميع أنواع المعرفة الإنسانية سواء كانت نظرية، أو تطبيقية، تجريبية أو استقرائية، فالفيزياء علم، والنحو علم، وكذا الطبيعة والتاريخ والجغرافيا وغيرها، فقد شاع بين الناس: علم النحو، وعلم الفلك، وعلم البلاغة، وعلم الطب.. إلخ. فكانت كلمة العلم شائعا استعمالها في كل مجالات البحث والمعرفة، فإذا أريد تحديدها أضيفت إلى فرع العلوم الذى يراد تمييزه عن غيره. كذلك أطلقت كلمة « عالم » على كل من اشتغل بالبحث الفكرى واتخذ مجالا من مجالات العلوم والمعارف مهنة له. فإن احتياج الأمر إلى تحديد مجاله فإنه يعرف باشتقاق من نوع الفكر الذى يشتغل به، فيقال: فقيه، أو محدث أو نحوى، أو كيميائى وغير ذلك من الأوصاف التى تبين اختصاصه، ولم يمنع ذلك من وصفه بكلمة « عالم » مع بيان تخصصه، فيقال العالم الفقيه، أو العالم المحدث. ومن هنا كانت كلمة « علم » عامة تطلق على كل فروع المعرفة.

غير أننا وجدنا فى العصر الحديث من يحصر كلمة « العلم » فى مجال التجربة والتطبيق، فأطلقوها على المعرفة التى تؤخذ عن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج كعلم الفيزياء، والكيمياء، وسائر العلوم التجريبية. وكان ذلك ترجمة لكلمة **Scince** ثم استعملوا كلمة « الثقافة » فيما عدا ذلك، كعلم الإنسان « الانثروبولوجيا » وعلم الأقوام « الانثولوجيا »، وعلم النفس

« السيكولوجيا » وعلم الاجتماع « السوسيولوجيا » وغير ذلك من العلوم النظرية، ووضعوا لها مصطلحا عاما، وهو: « علوم الإنسانيات » كما أنشأوا كليات تعرف بهذا الاسم.

وكان ذلك نتيجة لدخول مصطلح « الثقافة » واستعماله فى مجال المعرفة، لأنهم أرادوا التمييز بين العلم والثقافة، فأطلقوا كلمة « العلم » على المعارف التجريبية والتطبيقية، وأطلقوا كلمة « الثقافة » على المعرفة النظرية. ومن هنا جاء تعريف الثقافة مختلفا باختلاف فزوع العلوم الإنسانية، فعرفها علماء الانثروبولوجيا بأنها: طرز ونظم من العادات التى يمارسها الراشدون بدرجات متفاوتة، والتى تساعدهم على التكيف والتوافق مع البيئة المحيطة بهم، فضلا عن التكيف والتوافق مع بعضهم البعض. وهذه العادات يتلقنها الأبناء من الآباء، كما يكتسبونها من علاقاتهم واحتكاكهم بالمجتمع الذى يعيشون فى ظله » وعرفها بعض الباحثين بأنها « مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولى فى الوسط الذى ولد فيه » فإذا قارنا بين هذا التصور للثقافة مضافا إليه ما ذكرناه فيما سبق من تصور التربوى لها بأنها: « مجموعة من الأفكار والتقاليد والعادات »، وبين ما يفهم من كلمة « العلم » بالمفهوم الحديث، وهو ما يتعلق بالمعرفة التجريبية والتطبيقية لخرجنا من هذه المقارنة بما يأتى:

١ – مجال العلم: الطبيعة وما يتعلق بها، ومجال الثقافة. الإنسان، وبالتحديد عقيدته، وتقاليده، وعاداته، وما يتعلق بها من أفكار وتصورات وسلوك.

٢ – العلم لا وطن له، لأن مجاله الطبيعة، وهو حقل مشترك بين الناس جميعاً. وبناء عليه فما يتوصل الإنسان إليه من بحثه فيها لا يحمل طابع أى شعب، إذ ليس له صفة الاقليمية أو سمات العرقية، بل هو عالمى، ومباح لكل الناس. ولهذا فلا خوف منه على عقيدة فلن يمسها، ولا خطر منه على تقاليد أو عادات فلا يحمل عناصر تهديدها. وعليه فلا حرج على المسلم أن يأخذ نتائج أبحاث الآخرين فى هذا المجال، مهما كانت عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية، فهى أبحاث مجردة لا تأثير لها على عقيدة المسلم، ولا ضرر منها على تقاليده وعاداته.

٣ – تختص الثقافة بالمعتقدات والتقاليد والعادات، وأساليب الحياة، والنظام الأسرى، وهذه كلها أمور تختلف فيها الشعوب نظرا لاختلاف العقائد التى هى مصدر كل الموضوعات الثقافية، ولهذا تختلف من شعب لآخر، وتتوقف عليها كيان الأمة وهويتها، فإذا تهاونت الأمة فى ثقافتها فتجاهلتها، أو استعاضت عنها بثقافة أجنبية، تصدع كيانها وضاعت هويتها، وذابت فى ساحة من استعارت ثقافته، وذلك هو ما يسعى إليه كل مستعمر، إذ يجد فى استبدال ثقافته بثقافة المحتلين كى يذوبوا فى كيانه، وتنمحى شخصيتهم فيما أعده لهم من ثياب مستعارة. كى يظل مسيطرا على مقاديرهم، موجها لأفكارهم، فيضمن ذلك له استمرار السيطرة عليهم.

أما إذا أحست الأمة بأن ثقافتها تختلف عن ثقافة الآخرين، وأنها تتميز عنهم بتمسكها بهذه الثقافة، فإن هذا الإحساس يؤدى بها إلى:

١ – الالتفاف حول مفهوم وجودها وحول ثقافتها التى تحس بكيانها فى ظلها.

٢ – حماية الأمة من الذوبان والتآكل والاحتواء من قبل الآخرين.

٣ – بذل الجهد فى سبيل نشر هذه الثقافة، واستعذاب ما يحل بالناس فى سبيلها من تضحيات.

فيجب على كل مسلم أن يفرق فى مجال المعرفة بين علوم تجريبية وتطبيقية، وبين ما يطلق عليه فى العصر الحديث كلمة «الثقافة» ليدرك أن الأولى عالمية لا حرج عليه من أخذها دون أن يفكر فى هوية مصدرها ومنبعها، فليس لها تأثير سلبى على كيانه وذاته، وأن الثانية محلية، تحمل طابع عقيدة شعبها وتقاليده وعاداته، فلا يسمح بأخذ شىء فى هذا المجال إلا إذا كان متأكداً من أنه لا يتعلق بعقيدة، ولا يحدث تأثيراً فى مجال السلوك يهدد كيان الأمة أو يمسخ هويتها ويبدد معالمها بين الأمم..

* * *

أنواع الفكر

مادة الفكر نوعان:

الأولى: تطبيقية تجريبية، وتحمل صفة العالمية، فهى ليست مطبوعة بعقيدة معينة، ولا مختومة بتقاليد بيئية، ولا عادات محلية، إذ ليس هناك نظريات فى هذا المجال تحمل عناصر مسيحية، وأخرى تقوم على أسس شيوعية أو اشتراكية، ولذلك فلا حرج على المسلم أن يتعلمها ويستخدمها فى بناء حضارته، بل حثه الإسلام على تعلمها واستيعابها واستخدامها، فقد قال رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها». فجانب الحكمة فى هذه المواد أنها تفيد الإنسان، فتساعده على رفع مستوى معيشته وتحصينه من المخاطر الطبيعية التى تحيط به دون أن تمس عقيدته، أو تهدد تقاليده وعاداته التى لها صلة ذاتية بمبادئه وتعاليم دينه.

أما النوع الثانى: فهو العلوم الإنسانية، وتشمل علوم الإنسان والأقوام والنفس والاجتماع وغيرها من فروع العلوم التى تتصل اتصالا مباشراً بالعقيدة والتقاليد والعادات، إذ عليها يقوم كيان الإنسان وهويته، وبه تتحدد هوية المجتمع وطبيعته، طبقاً لما تحويه من مبادئ.. وما تشتمل عليه من نظريات، وقضايا، ومن هنا جاءت محليتها، إذ هى تختلف من شعب لآخر، وتتباين طبقاً لتباين البيئات ثقافيا ودينيا واجتماعيا. ولهذا وجب على كل شعب أن يلتزم بكل ما يعبر عن ذاتيته، ويفصح عن هويته، لأنه يحمى بذلك كيانه من التحلل فى كيانات أجنبية، ويحافظ على

طابعه حتى لا تطمس معالمه بواسطة النظريات المستوردة، والأفكار الغريبة عن حياته، ونظم الحياة التى لا تتفق مع روحه وتعاليم دينه، وذلك ما يعبر عنه بالتراث، إذ ليست الدعوة إلى المحافظة على التراث قاصرة على التمسك بأطلال وآثار، بل يشمل كل ما يربط الإنسان بمنابع ثقافته التى تحدد ذاته وتميزها عن غيرها من أصحاب الثقافات الأجنبية. فهى كما تكون من الآثار التى خلفها الأجداد، تكمن أيضاً فى الأفكار والنظم والتقاليد وأساليب الحياة وطرق التعامل مع كل ما حوله ومن حوله وعلى رأسها: العقيدة، فهى المحور الأساسى الذى يقوم عليه كل ما يتعلق بالإنسان من سلوكيات وأخلاقيات لها تأثير عميق فى حياته وكينونته. ولهذا كان أهم شىء تجب المحافظة عليه، وبذل كل الجهود لتعليمه للأجيال: هو الثقافة الإسلامية، إذ يجب على الأمة أن تعلم أبناءها عناصر مقومات المجتمع الإسلامى، وتبين لهم تفاعل هذه العناصر مع أحداث التاريخ. ومن هنا يجب أن نتناول بالدراسة والبحث: الدين، واللغة، والتاريخ بما اشتمل عليه من جهود أبنائها فى بناء صرح الحضارة، وما قدموه فى مجالات المعرفة الإنسانية، وما أنجزوه فى مجال الإبداع والابتكار، لأن التعريف بجوانب حياة الأمة أساسى لإبراز دورها فى الحياة، ودعوة للأجيال إلى التمسك بما أنجزوه، ودفع لهم إلى التقدم على هذا الطريق أسوة بأسلافهم..

إن ثقافة الأمة: هى صورتها الحية، فإن لم يعن بها ماتت وتلاشت من الوجود. ولا مكان لأمة ميتة على سطح الكرة الأرضية..

وهى التى تحدد ملامح شخصيتها، فإن أهملت ضاعت شخصية الأمة، وتبخرت معالمها، فلا يكون فى خريطة الشعوب هيئة تدل عليها ولا شكل ينبىء عن وجودها.

وهى التى تضبط سيرها فى الحياة، وتحدد اتجاهها فيه، فإن فقدتها عصفت بها أمواج فى كل اتجاه وتقاذفتها الرياح فى كل الطرق والمسالك والدروب، فلا يعرف لها سبيل معين، ولا طريق موصلة، فهى تتخبط ذات اليمين وذات الشمال، وتميل إلى الشرق تارة وإلى الغرب أخرى، فترتبك أمورها وتضطرب شئونها، فلا يستقر أبناؤها على حال، ولا يربطهم خيط واحد، فهم مضطربون، ومتنافرون. فيؤدى بهم ذلك إلى الذوبان فى شعب آخر، فيصبحون تاريخاً يقرأ، وموعظة لكل من يفكر فى إهمال ثقافته، أو يتهاون فى حراستها والدفاع عنها.

فإذا أردنا وضع الأولويات فى منهج الثقافة الإسلامية التى يجب على الأمة أن تعيها وتعلمها لأبنائها، فإن القرآن الكريم يمثل المقام الأول فى سلسلة الأولويات الثقافية، إذ هو منهج الأمة ودستورها فى حياتها الخاصة والعامة، وعلى أساسه تتميز شخصيتها بين الأمم، وبه تعرف هويتها وشكلها وسط الخضم الهائل من الأشكال والأنماط البشرية، ثم تليه: السنة النبوية، إذ هى بمثابة المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم، تفصل مجمله، وتوضح ما غمض منه، وتشرح ما استغلق فهمه، واستعصى معرفة المراد منه، فتتضح معالم الطريق أمامنا، وتتحدد اتجاهاتنا فلا تتخبط يميناً أو يساراً.

كذلك يجب علينا العناية باللغة لأنها مقوم هام، وأصل من أصول الثقافة الإسلامية، إذ بها نزل القرآن الكريم، وفى وعائها حفظ الحديث، وصيغت العلوم والفكر الإسلامى، وفضلا عن هذا فهى من أهم مقومات وحدة الأمة، إذ هى وسيلة التفاهم والالتقاء الفكرى والنفسى..

كما ينبغى ألا تنسى الأمة تاريخها، فدوره كبير فى بناء شخصيتها، إذ تتخذ منه المثل العليا، وتستأنس به الشعوب فى تكوين حاضرها وبناء مستقبلها، فهو بمثابة المدرسة التى يتعلم فيها القادة فن القيادة، والساسيون فن السياسة، والعسكريون فن الاستراتيجيات العربية، بل إن كل ذى حرفة، وفن وصناعة يستطيع أن يتعلم من تاريخه ما يبعث فيه الهمم، ويوقظ العزائم، ويرفع المعنويات، ويغرس الثقة فى نفسه فينطلق فى طريق البناء والتقدم.

ولهذا كان التاريخ الإسلامى هدفا لسهام الأعداء، وطعن الطاعنين، فهو من المجالات التى وجه لها نصيب وافر من حملات الافتراء والتشويه، لأنه أحد الجوانب التطبيقية والصور العملية للإسلام. فدراسة التاريخ الإسلامى هى دراسة الإسلام من الناحية التطبيقية وهو دراسة للذين أخلصوا له ومن أساءوا إليه باسمه، من خارجه أو داخله وكشف لوسائلهم. وليس المقصود من دراسة التاريخ الإسلامى أن تقتصر معرفتنا على الجانب السياسى فقط، بل يجب أن تشمل الدراسة كل ما أنتجه الفكر الإسلامى فى جميع مجالات الحياة الفكرية والعملية، سواء كان فى داخل

المجتمع الإسلامى أو مع غيره من المجتمعات، سلما أم حربًا، فإن قامت ثقافة الأمة على هذه الأسس امتدت جذورها فى باطن أرضها فلا تستطيع رياح الثقافة الأجنبية اقتلاعها أم خلخلتها، وثبتت أركان بنائها أمام كل العواصف التى تهب عليها، فلا تذوب شخصيتها ولا تتميع هويتها فتظل كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

* * *

مشكلات الشباب

كثر الحديث فى هذه الأيام عن الشباب ومشكلاته، وارتفع ضجيج الشكوى من ارتفاع نسبة المنحرفين بينهم، وتزايد عدد جماعات الإرهاب والتخريب، ونمو تهديد المتطرفين والمتعصبين فى صفوفهم، حتى أصبحت هذه الظاهرة حديث المجتمع، وموضوع الساعة تدور حولها أحاديث المجالس والمنتديات، ما بين مؤيد لاتجاه من اتجاهاتها، ومعارض لكل مظاهر عنفها، سواء كان يمينا أو يسارا، إرهابيا، أو متطرفا يتخذ الدين والعقيدة مرتكزا له فى تهديده لأمن المجتمع وسلامته، أو يتكىء على مبادىء الدين وتعاليمه لتحقيق هدفه والوصول إلى غايته عن طريق العنف أو التهديد بإزالة كل من يعارضه من طريقه، وحتى ولو وصل الأمر إلى اللجوء إلى أتخاذ الاغتيال وسيلة لذلك.

وقد أدى انتشار هذه الظاهرة فى المجتمعات إلى إيقاظ همم الباحثين والخبراء وتوجيههم إلى بحث أسبابها ودوافعها ومحاولة وضع ما يرونه من خطط تؤدى إلى معالجتها، أو الحد من غلوائها، فكثرت الأبحاث التى أجريت حول هذه المشكلة، وتعددت الكتب والنشرات العلمية التى ركزت على مشكلة الشباب، فحاول الكتاب تشخيصها وبيان علاجها، غير أن آراءهم جاءت متفاوتة فى التشخيص، وبالتالى جاء العلاج مختلفا أيضاً، إذ ذهب بعضهم إلى أن جذور المشكلة تكمن فى قصور المناهج التعليمية، وفقر ما تقدمه المؤسسات العلمية والثقافية لتكوين

الشخصية السوية، فلم تخرج المدارس مواطنا صالحا للحياة، إذ لم يتلق فيها ما يساعده على تكوين شخصية طبيعية، ولم يتعلم فيها ما يشكف له أسرار الحياة وكنهها، ويصور له أبعاد الأنشطة الإنسانية وهويتها، ولم تغرس فى نفسه بذور التعامل الصحيح مع من حوله وما حوله، بل خرج منها خاوى الوفاض - أو قريبا من ذلك - من كل ما يمده بالمبادئ والتعاليم التى تضبط سيرته فى هذا المجال، فتعرض لريح شديدة، بل لعاصفة هوجاء لم يستطع مقاومتها، فانحرف يمينا أو يسارا طبقا لشدة الموجة التى تعرض لها، ولم تسعفه المؤسسات الثقافية والجهات الإعلامية بما يساعده على ضبط توازنه بين هذه الموجات المتلاحقة من اليمين أو الشمال، وربما وجد من هذه المؤسسات ما كان مصدرا لهذه العواصف الهوجاء.

وذهب فريق آخر إلى ان أسباب المشكلة تكمن فى المجال الاقتصادى، لأن تاثير المال على الإنسان - وخاصة من كان فى بداية حياته - شديد وعميق، سواء كان سلباً أو إيجاباً، فإن استحكمت الأزمة الاقتصادية، واشتدت وطأة المطالب المالية، انحرف الإنسان، فلا يفكر فى عواقب ما يرتكبه، مادام هدف الحصول على المال لتخفيف ضغوط الحاجة المعيشية مسيطرا على حواسه، فلا يرى غيره، ولا يبصر ما عداه، وإن كثر المال فى يده، أنفقه دون ان يعرف للإنفاق حدودا، ولا يدرك للمال هدفا سوى التبذير يمينا وشمالا، لأنه تصور ان قيمته فى كثرة الإنفاق والبذخ والتظاهر بإهدار المال دون حساب، وأن إثبات شخصيته

لا يتحقق إلا باقتناء ما لا يحتاج إليه، واقتراف ما يخيل إليه أنه من الاستمتاع بما استطاع بماله أن يحصل عليه، مع أن حقيقة الأمر أنه يدمر نفسه، ويتسبب فى ضياع أهله وذويه ، ويسهم فى تدمير مجتمعه، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾
ويأتى التدمير فى هذه الظاهرة من ناحيتين: من جانب أولئك الذين أنعم الله عليهم بالمال فاستخدموه استخداما سيئاً، حيث أنفقوه على شهواتهم وملذاتهم فدمروا أنفسهم وأهدروا كثيراً من الثروة القومية التى تقوم عليها حياة المجتمع، وتؤثر فى تقدمه وحضارته.
أما الناحية الأخرى فهى من جانب الذين حرموا نتيجة جشع من ملكوا الثروات، وتحكموا فى المجال الاقتصادى، فلم يراعوا حق الآخرين مما دفهم إلى اتخاذ العنف وسيلة لرفع الظلم عن كاهلهم، أو اللجوء إلى السلبية وتعاطى السموم هربا من واقعهم الأليم، وتسكينا لثورة أعصابهم وغليان دمائهم كلما رأوا حرمانهم بجانب بذخ الآخرين، وأحسوا بوطأة الحاجة إلى ما يسدون به رمقهم، وهم يبصرون المال يهدر فى كماليات لا حاجة إليها، وينفق فى مجالات لا يتصورها عقل، ولا يدركها منطق.

ويرى هؤلاء أن إصلاح المسار الاقتصادى وتوجيه النشاط المالى توجيها سليما بحيث تتاح الفرصة للجميع دون تمييز أو محاباة، ويؤدى كل مواطن ما عليه لأمته وبنى وطنه. بحيث تخف وطأة الحياة على من حرم من المال، ويستقيم سلوك من أفاء الله عليه بالمال فلا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالنفع، حتى تزول

أسباب ثورة المحرومين. وتختفى دوافع السلبية، لديهم، وتتلاشى عوامل التدمير والهلاك من سلوك الأغنياء. فيستقيم تعاملهم مع الثروة، فلا ينفقون ما يملكون إلا فى مجال التنمية والانماء، وفى وجوه الخير والصدقات.

وهناك فريق ثالث يرى أن أساس المشكلة يعود إلى الأوضاع السياسية فى المجتمعات الإنسانية، فكبت الحريات، وتعقب كل ذى فكر حر بالتنكيل والتعذيب والسجن وأحيانا كثيرة بالقتل، فَجَّر غضب الشباب فثاروا على الأوضاع السائدة مستخدمين كل ما يقع فى أيديهم للوصول إلى ما يتصورونه لحياة المجتمع، غير عابئين بما يترتب على ذلك من كوارث اجتماعية واقتصادية تقضى على الأخضر واليابس.

ولو كان لديهم رؤية ناضجة ما اتخذوا العنف وسيلة للتغيير.

* * *

مشكلات الشباب فى العالم الإسلامى

يظن بعض الباحثين أن مشكلة الشباب ترجع إلى طبيعة النظم السياسية فى المجتمع الإنسانى، فحيث توجد ديكتاتورية تتحكم فى أقدار الناس فتكبت حريتهم، وتستنزف ثروتهم وتصادر أملاكهم، وتستغل نشاطهم لحساب حفنة من الحكام وقطيع من المنافقين، تغلى الدماء فى عروق الأحرار من الشباب، فتتلمظ غيظاً وكمداً، وتتذمر على الوضع تنفيسا عن النفس، وتخفيفا عن كاهل الإنسان مما ينوء به من أعمال الطغاة، وممارسات من يتحلقون حولهم من المنتفعين والدجالين، ثم لا يلبث أن ينفجر فى ثورة ضد الأوضاع السائدة، معلنا تنكره لكل ما يقيده، حتى ولو كان ذلك لازما لانضباط الحياة وتوازنها كالدين: بما فيه من مبادئ وأحكام..

ويرى المحللون أن علاج هذه المشكلة لا يكون إلا بتربية الشباب تربية تمكنهم من القدرة على الموازنة بين حوار الرأى البناء، وصدام القوى الذى يدمر كل ما شيدته الأمة على طول تاريخها، فتناطح القوى فى المجتمع يؤدى إلى هلاك الأخضر واليابس. أما محاورة الكلمة الهادئة، ومقارعة الرأى بالرأى فإنه يقود أبناء الأمة إلى الطريق الذى يجبر الدكتاتوريين على التنازل عن تسلطهم وجبروتهم، ويكشف الا عيب المنافقين والدجالين فيتواروا قبل أن تصيبهم سهام الكلمة القاتلة، فيكفوا عن معاونة الطغاة، وينفضوا عن ساحة المتسلطين والمتحيرين، وعندئذ تشيع

روح المشاركة بالرأى فى جنبات المجتمع، فتستقيم مسيرته وتنتظم خطواته، فلا يرى المرء اعوجاجا دون أن يجد من يُقوّمه، ولا انحرافا إلا ويظهر من يعيده إلى الخط المستقيم، فتهدأ النفوس وتستقيم الجوارح، فلا تجد من يثور لأنه لا يوجد سبب للثورة، ولا يظهر من يتنكر لمبادئه وتقاليده، لأنه يتمتع فى ظلها بالعيش الكريم، ويحس تحت لوائها بعزته وكرامته..

غير أن هناك من يرأى أن الوضع الاجتماعى الذى نشأ بسبب التقدم التكنولوجى هو السبب المباشر فى ظهور مشاكل الشباب، إذ خَلّف استعمال التكنولوجيا الحديثة آثارا سيئة على علاقات الناس بعضها ببعض، فقد قطعت الأنماط السلوكية الحديثة الروابط الاجتماعية، ومحت العلاقات الإنسانية، فأصبح الإنسان يدور بها ومعها فى دائرة منفصلة عن غيره، لا يربطه به رابط إنسانى، ولا تصله به قرابة نسب، ولا علاقة صداقة، فهو يتعامل معه كما تتفاعل الآلة مع غيرها داخل الدائرة الميكانيكية، فلا عواطف تشده إليه، بل مصالح مادية ومنافع دنيوية. ولا شعور يجذبه إليه، بل بريق المال هو الذى يدفعه إلى التقرب منه. ولا روح تميل إلى روحه لأنها تشعر بالهدوء معها والسكينة فى القرب منها، بل الطمع فى الجاه والسلطان هو الذى يجمع بينهما، ويوحد غايتهما. ولا تقاليد وتراث يصل بينهما ويحدد مسيرتهما فى المجتمع، بل يفرق بينهما كثرة المعروض من المظاهر والظواهر، فبينما يقلده أحدهما نوعا منها، يتخذ الآخر نوعاً ثانياً عنوانا له وأسلوبًا لحياته، فتتفرق بهم السبل، وتتوزع أمامهم المسالك

فلا يلتقون على الرغم من قربهم الجسماني، وتجاورهم المكاني، إذ يسير كلٌ في واد، فالأب له اهتمامات وسلوكيات لا تتفق مع ما أصاب الابن من موجات التحضر والتمدن، والأم لا تلتقي مع البنت – فكرياً وسلوكياً – من جراء ما انتشر بين الفتيات من صور وأشكال لم تكن معروفة من قبل، والأشقاء يتناكرون ويتصادمون بسبب اختلافهم فيما يقبل ويرفض من مظاهر الحضارة وأنماط التقدم. وتزداد المسافات بين المواطنين كل يوم اتساعاً، لأن كلا منهم اعتنق مذهبا في الحياة يختلف عن الآخر، وآمن بفلسفة تغاير ما اعتنقه الآخر، فأصبح كل فرد يعيش وحده في جزيرة منعزلة عمن يشاركونه في الوطن، بل وصل الأمر إلى إقامة الحواجز بين الأسر، فلا يتفاهمون لأنهم يتحدثون بلغات مختلفة، ولا يلتقون على هدف واحد، لأن طرقهم ومسالكهم متشعبة ومتنافرة، فأدى ذلك إلى خلق حالة من الاضطراب النفسي والتوتر العصبي والغثيان الاجتماعي، والعمى الأخلاقي، دفعهم إلى التمرد دون أن يحددوا على أي شيء يتمردون، فليس لديهم القدرة على تشخيص ما عندهم من علل، أو معرفة مصدر الآلام التي يعانون منها، ولذلك فهم لا يعرفون لثورتهم هدفاً يسعون لتحقيقه، ولا لتمردهم سبباً يحاولون القضاء عليه، فأصبحوا ثائرين من الألم الذي يعانون منه، وخارجين على القانون كمظهر من مظاهر البكاء لعجزهم عن التواؤم مع المجتمع، والتآلف مع ذويهم وبني وطنهم ، والانسجام مع معطيات عصرهم مع الاحتفاظ بالأصيل من تقاليدهم، والحسن من عاداتهم، وليأسهم

من القدرة على الوصول إلى صيغة للحياة تتيح لهم التمسك بمبادئ دينهم وتعاليم شريعتهم، مع إمكانهم التمتع بما تقدمه الحضارة من وسائل وأشكال فى مجالات الحياة المختلفة.

وللخروج من هذا المأزق ينبغى على مؤسسات الثقافة والتوجيه أن تعنى بتصفية التراث مما علق به من قيود غريبة. وحلقات مصطنعة حالت بين الانسان وبين تجديد حياته، وتطور أساليب معيشته بما لا يبعده عن جذوره الأصيلة، ولا يحول بينه وبين التفاهم مع ذويه وبنى عشيرته، ولا يفصل بينه وبين مواطنيه، كما تنقى الفكر الدينى مما علق به من آراء واجتهادات لا تناسب العصر، ولا تتفق مع معطيات المرحلة التاريخية، التى تمر بها حتى يرفع التناقض الداخلى عند الإنسان، ويهدأ الصراع النفسى بين التمسك بالدين وتعاليمه، وبين استخدام آلات الحضارة ومستحدثاتها، فإن حدث ذلك فلن يكون هناك داع لتمرد، ولا سبب لثورة، لأن دوافع الثورات وسبب وجودها يكمن فى عدم التوازن فى حياة الإنسان، وفقدان الانسجام بينه وبين من يعيشون معه سواء كان ذلك على مستوى الأسرة، أو فى محيط المجتمع..

* * *

أسباب التمرد

يرى المهتمون بالمسائل الدينية أن مشاكل الشباب نشأت من الفراغ الدينى، ذلك أن البرامج التعليمية لا تهتم اهتماماً كافياً بالجانب الدينى فى العملية التربوية، فالمقررات الدينية جافة، صيغت بأسلوب لا يساعد على غرس التعاليم الدينية فى نفوس الطلاب بل كثيراً ما ينفرهم منها، وبالتالى يقيم حاجزاً معنوياً بينهم وبين المجالات الدينية مما يساعد الأفكار الأجنبية على التغلغل فى نفوسهم، والتمكن من توجيههم الفكرى وتشكيل سلوكهم الأخلاقى.

أضف إلى ذلك أن العلوم الأخرى ليس فيها ما يساعد على تثبيت الأفكار الدينية فى أذهانهم، بل فيها من الإشارات والتلميحات ما يزعزع عقيدتهم ويهز إيمانهم، فيعرضون عنه ويتجهون إلى ساحات أخرى حيث يتيهون فى عماية ظلماء، وضلالة بلهاء، أُسدلت أستارها واستحكمت منافذها، فلا يجدون لهم منها مخرجاً عند ما يتبين لهم أنها لا تشبع رغبتهم ولا تلبى حاجتهم فيثورون دون هدف محدد، ويتمردون على كل ما يرونه فى طريقهم من غير أن يتبينوا الفرق بين ما يقدم لهم العون للخروج من هذا المأزق، وبين ما يجذبهم إلى أعماق الضياع والهلاك.

وينقسم الشباب الثائر إلى قسمين: فريق انقطعت حبال

الاتصال بينه وبين الدين، لأنه رأى أن ما يقدمه الفقهاء ورجال الدين من تفسيرات للنصوص الدينية لا تساعده على حفظ التوازن بين الجانب الروحى والجانب المادى فى مجالات الحياة، فهم يطلبون منه أن يبتعد عن الجانب المادى، ويغرق نفسه فى محيط الروحانيات، إذ تحرم آراؤهم كثيرا من المعطيات المادية التى لا يمكن الاستغناء عنها، كى يعيش الإنسان حياة متزنة، ويستمتع بما يقدم له لإشباع غرائز خلقها الله فيه على نحو يجعلها لا تسكن إلا بحصولها على ما يسكن من حدتها، ويهدئ من ثورتها.

ومن الطبيعى أن يعجز الإنسان عن الالتزام بشىء ضد طبيعته، وإن استطاع بعض الناس ذلك، فلن تتمكن الأغلبية من تنفيذ برنامج يحرم عليهم تلبية نداء الطبيعة، كما يرسمه أولئك المتشددون من رجال الدين. ولهذا يبتعد كثير من الناس عن مجال الدين بسبب هذا التشدد الذى لا يقدرون على الالتزام به، وتزداد المسافة بينهم وبين الدين كل يوم اتساعا حتى يخرجوا من ساحته، وينغمسون فى أشياء أخرى يظنون أن فيها مطلبهم، وأنهم سوف يحصلون فى ساحتها على ما يحتاجون إليه لإشباع رغباتهم، فإذا ما خاب ظنهم كفروا بالظروف المحيطة بهم، بعد أن غابت عن أعينهم التعاليم الدينية السمحة التى تساعدهم على التواؤم مع الظروف، والانسجام مع معطيات الحياة، فيبحثون عن مخرج فلا يجدون، وعندئذ تكون ثورتهم على غير هدى، ومن غير هدف يريدون الوصول إليه، اللهم إلا الرغبة فى الخروج من هذه الدائرة التى أحسوا فيها بالضياع والحرمان.

أما الفريق الآخر فقد تمرد نتيجة سلوك الفريق الأول؟ إذ

عندما رأى هؤلاء الشباب أن الفضيلة ضاعت، والأخلاق توارت، فلم يعد لتعاليم الدين أى أثر فى سلوك الناس وتعاملهم مع بعضهم، لأن المادة صارت إلههم، والملذات معبودهم، ومواطن اللهو الحرام قبلتهم، واقتراف الفحشاء والمنكر سبيلهم، فأصبح الناس يعيشون عيشة الحيوان فى الغابات، يأكل بعضهم بعضا، بل يفترس الأخ أخاه، ويقسو الأب على ابنه، ويتمرد الابن على الأب مما جعلهم يتفوقون على الحيوانات فى الوحشية والافتراس فلا طبيعة تحكمهم، ولا قانون يردعهم، ولا نظم تقودهم إلى الطريق المستقيم، فأصبح البقاء للأقوى، والسيطرة لمن هو قادر على النفاق والمناورة، ويملك خيوط الخداع والمحاورة، فصار من يتمسك بالدين غريبا عن مجتمعه وهو يعيش فيه، وبعيدا عن أهله على الرغم من رؤيته لهم صباح مساء، ومحروما من حقه فى الحياة وهو الذى يبذل كل ما فى وسعه فى سبيل بناء أمته، فلا يدخر وسعاً فى تقديم كل ما لديه للإسهام فى تقدمها ورقيها..

دفعت هذه الصوة بكل جوانبها وأشكالها وأبعادها هذه المجموعة من الشباب إلى سلوك طريق التمرد على هذه الأوضاع، فأعلنوا عصيانهم لكل اللوائح والقوانين، وغضبهم على كل ما يرونه من وجهة نظرهم – مخالفاً للدين – فى المجتمع. ولما كانت بضاعتهم من التعاليم الدينية مزجاة، ومعرفتهم بالأحكام الشرعية قليلة، فقد دفعهم حماسهم إلى الحكم على كثير من الأشياء بأنها حرام دون دليل واضح من الكتاب والسنة، بل اعتماداً على ما تعودت عليه الشعوب عبر أجيال مضت، وألبسته ثوب الإسلام فى غفلة

الفكر، وضياع صوت الفقهاء المعتدلين بين ضجيج الحماس الدينى الذى لا وعى له، ولا تعقل لديه.

فإذا كان تشدد بعض رجال الدين سببًا من الأسباب التى دفعت الفريق الأول للانسلاخ عن عقيدتهم، لأنهم حرموا عليهم التعامل مع الحضارة، والتفاعل مع المعطيات الإيجابية للعصر الحديث، فان تهاونهم - أى رجال الدين - فى أداء واجبهم كان أيضاً من العوامل الرئيسية فى دفع الفريق الثانى إلى اتخاذ طريق العنف والتشدد فى الدين وسيلة لتحويل المجتمع، وإبعاده عما فرق فيه من الشهوات والملذات، لأنهم فقدوا الثقة بهم، فرفضوا كل آرائهم، واستنكروا نصائحهم. وللخروج من هذا المازق فإن على رجال الدين - أو بتعبير أدق: على المتخصصين فى العلوم - مواجهة التحديات المعاصرة، لا الهروب منها بحجة التحريم، ومحاولة تطويعها لتعاليم الإسلام حتى لا يتعطل ركب الحضارة، وتعديل وتنظيم ما يرونه قابلا للتعديل - فى مجال الاستمتاع بطيبات الحياة - لينطوى تحت تعاليم الإسلام، حتى يحافظوا على مسيرة الحياة تحت المظلة الإسلامية دون أن تتخلف المسيرة عن ركب الحضارة الإنسانية، كما أن عليهم أن يبينوا سماحة الإسلام فى قبول كثير من الصور والأشكال الحضارية، ولو أغضب ذلك المتطرفين من أعضاء الجماعات الدينية، وألا يكتموا ما أفاءه الله عليهم من فقه وفهم لنصوص الشريعة خوفا من بطش جبار، أو تملقا لأصحاب الدرهم والدولار، وإلا فقدوا ثقة الشباب، فلا يطمئنون إلى فتاواهم، ولا يصغون لأحاديثهم، ولا ينصاعون لتوجيهاتهم.

* * *

منهج ملائم لطبيعة العصر

تمر المجتمعات الإسلامية فى الوقت الراهن، بمرحلة حرجة، فهى تعانى الكثير من آثار الانحطاط والتخلف، وتكتوى بنار التبعية للعالم المتحضر، بالإضافة إلى أزمتها النفسية العميقة من جراء عدم القدرة على فهم معطيات العصر، ومتطلبات الحياة، والقصور فى مواكبتها مع الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه، إذ تحاول العقلية الرافضة للحضارة الحديثة فرض السيطرة على حركة الحياة، فتشتد معارضة من وقع تحت إغراءات الحضارة وبريقها لكل صوت يدعو إلى الالتزام بمبادئ الدين فى المجال الدنيوى، بحجة أن ذلك يعوق مسيرة التقدم فتتخلف الأمة عن ركب الحضارة، وتتخبط فى ظلمات العوز والحاجة، مما يضطرها إلى سلوك دروب التسول والسؤال، فتفقد بذلك هويتها وكرامتها، وتتنازل عن عزتها وكبريائها..

فإذا أمعنا النظر فى موقف الفريقين من العلاقة بين الإسلام والحضارة الحديثة لتبين لنا أن كلا منهما قائم على عدم الفهم، وسطحية البحث، والتمسك بمنطق النصوص دون مفهومها، ولظهر لنا واضحاً أن الذين أهملوا الدين وسلكوا طريق الحضارة تنقصهم الرؤية الواضحة لأهداف الإسلام فى المجتمع، بينما يحتاج المتطرفون فى مجال الدين إلى معرفة سماحة الإسلام، وتقبله لكل ما يجد فى مجال الأنشطة الإنسانية مادام لا يضر

الفرد ولا يؤدى إلى تدمير المجتمع. وللوصول إلى بيان ذلك لهؤلاء وأولئك يجب على المفكرين والباحثين فى مجالات الشريعة الإسلامية رسم منهج ملائم لطبيعة العصر، كى يتمكن الدعاة من توضيح الطريق السليم حتى لا يضل فريق، فيهمل فى تعاليم دينه، وينكر أحقيتها فى قيادة المجتمع، أو يتطرف آخر فى فرض أشكال وأساليب دينية بعيدة عن روح الإسلام وسماحته..

ولا يتأتى ذلك إلا بتضافر جهود كل القادرين على الإسهام الإيجابى فى هذا الحقل، لأن ما يحتاج إلى شرح وبيان معقد بمقدار تعقيد الحياة العصرية، ومتشعب فى جميع مجالات الأنشطة الإنسانية، ومتفرع فى دروب الأشكال الاجتماعية على اختلاف تقاليدها وعاداتها، وتنوع أوضاعها وهيئاتها، ولهذا سوف نتناول جانباً منها بالقدر الذى تسمح به ظروفنا، مؤثرين تناول ما نراه مثيراً للجدل بين الناس، نظراً لأهميته بالنسبة لهم من واقع استمراريته، وعدم الاستغناء عنه.

إن أهم ما يلفت نظر المراقبين فى الساحة الاجتماعية، حيث الصراع على أشده بين المتشددين فى مجال الدين، والمتساهلين فيه، أو الرافضين لسيطرته فى مجال الأنشطة الدنيوية، كثرة ما ينادى به المتطرفون من محرمات فى مجال الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، ومن أبرزها ما يتعلق بالطعام والشراب والأزياء، إذ عرف عنهم أنهم ينادون بارتداء نوع معين من الثياب، له أشكال خاصة وأوصاف محددة، وأعنى بذلك ما يراه هؤلاء من أن اللباس الشرعى هو الجلباب الأبيض القصير، فتراهم يحرمون ما عداه، إذ

يمتنعون عن ارتداء الملابس العصرية، بحجة أنها ابتكار أجنبى، فهى بدعة لا يجوز للمسلم أن يتبعها، وإلا نال عقاب الله فى الآخرة، مع أنه لا يوجد فى الإسلام نص - سواء فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية - يحدد نوعاً خاصاً من الأردية، أو شكلا معينا من الأزياء، بل ورد ما يبيح للمسلم أن يرتدي كل ما يضفي عليه الجمال والزينة، يقول تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾..

كما ورد أن رسول الله ﷺ ذم الكبر يوما، فقال له رجل: يا رسول الله، إنى أحب أن أكون جميلا وثوبى جميلاً. أفى ذلك كبر؟

فقال له رسول الله ﷺ: «لا، إن الله جميل يحب الجمال». وليس المراد خصوص المكان، بل يدخل فيه كل مكان يجتمع فيه الناس، إذ ينبغى على المسلم أن يلبس أحسن ما عنده عند مقابلة الناس أو الاجتماع معهم، حتى لا ينفروا منه لو أهمل فى نفسه أو ارتدى من الثياب ما يستنكرونه، أو يشمئزون منه..

كما ثبت أن الرسول ﷺ ارتدى كل ما كان فى عصره من أردية، فهذا يبين أن الإسلام لم يحدد زياً خاصاً للمسلمين، ولم يتدخل فى تحديد شكل الأزياء أو هيئتها، اللهم إلا فيما يتعلق بالعورة، إذ حددها بما بين السرة والركبة للرجل - مع الالتزام بما يقره العرف فى المجتمع - وبما لا يلفت النظر، أو يثير الفتنة بالنسبة للمرأة، وقد فسر جمهور العلماء ذلك بوجوب ستر جميع بدن المرأة ما عدا الوجه والكفين، وبأنها ينبغى - بل يجب عليها - أن تلبس من الثياب ما لا يشف أو يجسم ما أمر الإسلام بستره.

ومن هذا يتبين أن تمسك المتطرفين بالجلباب الأبيض القصير كزى إسلامى لا دليل عليه، لا من القرآن الكريم، ولا من السنة النبوية، فهم يفتون فى هذا بغير ما أنزل الله، بل أن تمسكهم بهذا الفهم يسىء إلى الإسلام، وذلك أننا لو سلمنا جدلا بأن هذا هو رأى الإسلام لوجب علينا أن نسلم بأن الإسلام لا يصلح إلا لسكان المناطق الحارة، لأن الجلباب لا يحمى سكان المناطق الباردة من البرد، فلو دخلوا الإسلام لوجدوا أنفسهم أمام ثلاثة احتمالات وهى: إما أن يلتزموا بتعاليم الإسلام فيما يتعلق بالأزياء حسب مفهوم المتطرفين فيلبسوا الجلباب، وتكون النتيجة أن يتجمدوا من شدة البرد فيموتوا، أو يهملوا هذا الجانب فيكونوا عصاة فى رأى المتطرفين، ويؤثر ذلك على اقتناعهم بالإسلام لو سلموا بهذا الرأى. أو يروا أن هذا الدين لا يتناسب مع طبيعة الحياة، فيهملوه ولا يتخذوه عقيدة لهم، وهذا هو ما فعله كثير من المعارضين لقيادة الدين للحياة المدنية، إذ عندما رأوا أن تشدد المتطرفين يعوق حركة التقدم، أعلنوا عصيانهم للدين فى مجال الأنشطة الإنسانية، لأنهم بحكم عدم معرفتهم بالإسلام ظنوا أن هذا هو الرأى الذى لا محيد عنه فى الإسلام، فتحللوا منه بحجج شتى وتفسيرات متنوعة حاولوا بها إقناع أنفسهم بأنهم لازالوا مسلمين، على الرغم من مخالفتهم هذا الرأى فى المجال الدنيوى واشتهرت بينهم مقولة: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»..

إن أسـلوب فهم المتطرفين للتعـاليم الإسـلامية لا يتفق مع روح الإسـلام فى كثير من الجوانب، ولا يتمشى مع متطلبات العصر، ومقتضيات الظروف الراهنة، ومن هنا جاء رفضهم لمظاهر لم يحرمها الإسلام، واتخاذهم مواقف لا تقرها تعاليمه، ولا يرضى عنها الفقهاء والمتخصصون فى العلوم الإسلامية..

* * *

تأثير التشدد فى المجتمع

أحدث سلوك المتشددين فى المجال الدينى ردود فعل متفاوتة بين أفراد المجتمع الإسلامى، كان أهمها وأعمقها على مسيرة الحركة الإسلامية فوق غالبية الطبقة المثقفة من تطبيق الإسلام فى مجال الحكم، إذ عندما رأوا أفراد الجماعات الدينية يتصرفون مع معطيات العصر فى مجال الحضارة تصرف الرافضين لها، والمدمرين لمسالكها ودروبها، ظنوا أن الإسلام يرفض التقدم والرقى، ويتناغم مع مظاهر التخلف والانحطاط، بل إنهم – أى المتشددين – يأبون التعامل مع أبسط مظاهر التمدين والرقى مؤثرين عليها أساليب البداوة فى مجال السلوك الاجتماعى..

ويستشهد المناوئون لتطبيق تعاليم الإسلام فى مجال الحياة الدنيوية على موقفهم بمظاهر شتى: بعضها يتعلق بالظواهر الاجتماعية، والبعض الآخر بنظم الحياة المختلفة فى مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد وغيرها مما تقوم عليه حياة المجتمعات البشرية. وقد تناولنا فى الفقرة الماضية جانبا مما يتعلق بما ينبغى أن يكون عليه المظهر الخارجى للإنسان من جهة النظر الإسلامية، فذكرنا أن التشريع الإسلامى لم يحدد نوعاً معيناً من الملابس، إذ ترك ذلك للعرف ولأذواق الناس، ولم يتدخل إلا فى تحديد العورة. أما ما عدا ذلك فالإنسان حر فى اختيار ما يلبس وتفضيل الشكل الذى يراه مناسباً له. بشرط ألا يشذ عما تعارف عليه المجتمع حتى لا يضع نفسه فى موضع السخرية والاستهزاء. فشكل الأزياء

وهيئتها - أو ما يسمونه الموضة - أمر إنسانى بحت، يخضع لظروف العصر والبيئة فلم يقيده الإسلام على الإطلاق إلا فى مجال ستر العورة، أو فى الحدود التى لا تخرج الإنسان عن الدائرة التى يقبلها الذوق العام.

وإذا نظرنا إلى المجال الثانى فى دائرة الاستمتاع بملذات الحياة، وهو مجال ما يتناوله الإنسان من طعام وشراب، لوجدنا أن المحرمات فيه لا تخرج عن عدد محدود جداً ذكر فى قوله تعالى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ** ﴾، وقوله: ﴿ **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾، فالمحرم لا يخرج عن: الميتة، الدم، لحم الخنزير، الخمر. ولم يكن تحريمها إلا لأنها تضر الإنسان فالتحريم لمنع الضرر. وما عدا ذلك من أطعمة وأشربة فهو حلال ما لم يثبت ثبوتا قطعيا أنه يضر بجسم الإنسان، لقول رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام». فإذا وجد من يحرم على نفسه أنواعاً أخرى مما أحله الله، لعدم استطعامها، أو لنفور نفسه منها فله ذلك، لأن هذا الأمر راجع إلى تركيبته الفسيولوجية، ومزاجه النفسى، لكن لا يحق له أن يدعى أن ذلك من تعاليم الإسلام، لأن أحكام الإسلام لا تخضع لأمزجة الفرد حتى ولو كان النبى نفسه، فقد ورد أن رسول الله ﷺ امتنع عن أكل لحم ضب قُدِّم له، فظن القوم أن امتناعه عن الأكل لحرمته، فبين لهم الرسول ﷺ

أن أكل لحم الضب ليس حراما، وإنما امتناعه عن أكله راجع إلى أن نفسه تعافه، لأنه لم يتعود على أكله، لعدم تقديمه على الموائد فى البيئة التى نشأ فيها..

فإن ادعى بعض المتشددين تحريم شىء لم يجمع الفقهاء على تحريمه، فليس من حقه فرض هذا الرأى على الآخرين، لأن الناس مخيرون فى الأمور المختلف فيها بين الآراء المتعددة، فلا يجوز لأحد إجبارهم على اتباع رأى معين منها لأن ذلك مخالف لطبيعة التشريع الإسلامى، التى تمنح الصفة القانونية لكل رأى قام على مسوغات شرعية وأدلة نصية: «من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن أصاب فله أجران»، ومادامت هذه هى روح التشريع الإسلامى، فللإنسان أن يختار من آراء الفقهاء ما يناسب ظروفه، ويتمشى مع عصره وبيئته..

وقبل أن نترك هذا المجال وننتقل إلى مجال آخر نحب أن نبين رأى الإسلام فى شىء يتعلق بموضوعنا، ويدور الجدل حوله - ولازال - كثيراً مما وضع المسلم في حالة من الارتباك وأحيانا يسبب له المتشددون حرجاً كبيراً فى منتديات عامة، ذلك أن بعض المتشددين يرفضون الأسلوب العصرى فى تناول الطعام والشراب، فتراهم يتمسكون بالجلوس على الأرض، ويرفضون الجلوس على المائدة اعتمادا على أنها بدعة، ويصرون على أن يتناولوا طعامهم بأيديهم وبطريقة استعمال جميع الأصابع مع راحة الكف، معتقدين أن ذلك من السنة التى يجب اتباعها ويستنكرون، وفى بعض الأحيان يرفضون أن يشاركهم الطعام من

يستخدم أدوات المائدة من شوك وسكاكين وملاعق، مبررين أن ذلك ليس من السنة التى لا ينبغى للمسلم أن يهملها، أو يفرط فى جزء منها، مع أن روح الإسلام وتعاليمه تحرم الصورة التى يتناولون بها طعامهم، فقد ورد أن الرسول ﷺ نصح الغلام الذى كانت يده تعبث فى طبق الطعام يميناً وشمالاً مما نفر الجالسين معه، فقال له: « يا غلام، سم الله، وكل بيمينك وكل مما يليك »، فروح هذا الحديث تنصح المسلم بأن يتناول طعامه بطريقة لا تؤذى من يأكل معه أو يراه، وهؤلاء ينفرون من يشاركهم الطعام عند ما يرى الأيدى تغوص بأصابعها الخمس حتى الرسغ – وأحياناً ما فوق ذلك – فى الطعام. كما يفهم من الحديث الامتناع عن كل ما يستهجنه القوم فى هذا المجال، فلا يتصرف إلا فى حدود آداب المائدة، وطبقاً لما تعارف عليه الناس، فإن كان الخروج عن استعمال أدوات المائدة منفراً فلا يجوز له ذلك، بل يلتزم به، لأن الإسلام طلب منه عدم إيذاء الآخرين، وإن التزموا بعدم إحداث صوت عند الشرب، فلا ينبغى له فعل ذلك بحجة أنه سنة لأن الإسلام يطلب من المسلم أن يلتزم بما تعارف الناس عليه، مادام لا يمس أصلاً من أصول التشريع، وليس فيه إهمال لسلوك متفق عليه..

* * *

الإسلام دين ودنيا

إذا كانت الأديان قد ركزت تعاليمها حول العبادات وطقوسها، وحثت أتباعها على سلوك طريق الرهبنة كوسيلة للخلاص من ماديات الحياة الدنيا، وزينت لمعتنقيها الهروب من كل ما يتصل بأنشطة الحياة الدنيوية لينالوا السعادة فى الآخرة، فإن الإسلام وازن بين الجانبين: الدينى والدنيوى، فكما فرض على المسلم فرائض فى مجال العبادات لا يكمل إيمانه إلا إذا أداها، فرض عليه أيضاً السعى فى الأرض ليخرج نباتها، ويرعى ثمارها ليستمتع به مادياً، كما يحس بالراحة النفسية عند ما يؤدى ما عليه من عبادات. فكلاهما فى الإسلام واجب ينبغى تاديته، وكلاهما فرض لازم يأثم بتركه، فكما يأثم الإنسان إذا أهمل الصلاة مثلا، يلحقه إثم أيضاً لو عزف عن الدنيا، فلم يبذل الجهد المطلوب منه فى سبيل رفع مستوى معيشته، والإسهام فى دفع عجلة تقدم مجتمعه إلى الأمام حتى يقوى على مواجهة الأعداء، ويظل متماسكا فى وجه ضربات الدهر ونوائب الأحداث.

ولو استعرضنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن الآيات التى تنظم الحياة المدنية، وترسم خطوطها، وتوضح معالمها أضعاف الآيات التى تشرح كنه العبادات وفروضها وسننها، نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا**

مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾، ولا تخرج الأرض ما فيها إلا بعمل الإنسان، وقوله: **﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾** وقوله: **﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾**.. وغير ذلك من الآيات التى توضح أن الإسلام حث المسلم على العمل فى مجالات الحياة، وأباح له طيباتها بجانب إلزامه بتأدية العبادات المفروضة، بحيث لا يطغى جانب على آخر مما يدل على أن الإسلام جاء موافقا لطبيعة الإنسان، إذ لا يمكن لإنسان أن يعيش عيشة متزنة إلا إذا لبى مطالبه المادية، كما أن العمل فى المجال الدنيوى عنصر هام فى بناء الحضارات، وابتكار ما يعود على الإنسان بالخير فى مجال حياته الخاصة، ويضمن له عزته وكرامته فى مجال الانتماء الوطنى، إذ لا تستطيع أى أمة أن تحتفظ بحريتها وكرامتها بين الأمم إلا بمقدار ما ينتجه أبناؤها فى المجال المادى، فكلما ارتفع بناؤها فى هذا المجال اكتسبت قوة ومنعة ضد من يريد الاعتداء عليها، أو يفكر فى إذلالها وإخضاعها لمشيئته وإرادته، ولهذا فإن أى دين يغفل الجانب المادى فى حياة الإنسان، يكون بعيدا عن واقع الحياة الإنسانية، ومتنافرا مع طبيعة الوجود، ولا ينسجم على الإطلاق مع واقع الحياة التى تسير عليها قوانين الكون، ومعطيات الوجود..

أعلن الإسلام رفضه الهروب من الحياة الدنيا، فقد ورد أن

رسـول الله ﷺ قـال: «لا رهبـانيـة فى الإسـلام»، بل إنه طلب من المؤمنين عدم المغالاة فى العبادة على حساب الإهمال فى الجانب الدنيوى، فقال تعالى مؤنبا من اتخذ الرهبنة طريقا له فى حياته: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾، ولما أخبر الرسول ﷺ عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار، سأل عمن يكفله فى معيشته فقالوا له: أخوه. فقال رسول الله ﷺ: «أخوه خير منه»، أى أن من يعمل ليكسب قوته خير ممن يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار، ويعيش عالة على غيره.

تلك هى روح الإسلام، دين ودنيا، عبادة وسعى على الرزق، روحانية ومادية، مسجد للعبادة بجانب ساحة الأنشطة المادية فى مختلف اتجاهاتها، بحيث لا يمكث فى المسجد بعد تأدية العبادة، إذ لا معنى للبقاء في المسجد مادامت مطالب العيش تلح عليه، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، أى لا تمكث فى المسجد بعد أدائك للصلاة، بل انطلق إلى عملك، واسع لتحصيل رزقك، وتذكر الله فيما تباشره من أعمال دنيوية، فلا تظلم ولا تهمل، ولا تخدع أحداً واعط كل ذى حق حقه ففى ذلك ذكر لله، لأن اتباعك لأوامره وأحكامه فى مجال العمل الدنيوى ذكر له وتسبيح بحمده..

قدس الإسلام العمل الدنيوى وحث عليه، وأوجب على أولى الأمر أن يهيئوا الظروف التى تساعد المسلمين على الإسهام فى مجالات الحياة المختلفة، حتى يتقدم المسلمون ويرتقوا، بل إنه

ربط قيمة المرء فى المجتمع بمقدار ما يقدم لأمته من مجهود فى المجال الدنيوى حتى صار هذا الاتجاه حافزا لكل مسلم إلى العمل، ومنفراً له من ان يكون سلبياً، او ان يصبح عالة على غيره، أو عقيما لا ينتج، اعتمادا على حسب، أو مال موروث يتمتع به بدون جهد يبذله، او إنتاج يضيف به لبنة صالحة فى بناء الصرح الحضارى. وقد ضرب الأمثال للناس ليوضح لهم هذا المفهوم فى مجال النشاط الإنسانى، ومن أوضح ما جاء فى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ففى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة الإسهام فى بناء الحياة، وأثر ذلك على وضع المرء فى المجتمع، إذ ظهر من المثل أن قيمة الفرد فى عمله، فمن لا يحسن عملا لا يساوى شيئاً، وليس من المنطق أن يسوى بين إنسانى سلبى لا يقدم شيئاً لمجتمعه، وآخر إيجابى يجد ويجتهد فى مجال العمل والإنتاج لينتفع هو وبنو وطنه من نتاج مجهوده وهذه قضية تنسجم مع واقع الحياة، وتتفق مع العقل، إذ لا يمكن لعاقل أن يسوى بين الشخصية السلبية العاجزة عن فعل الخير أو قوله العقيم، العالة على المجتمع، التى لا يجدى معها التوجيه إلى سبيل الخير، وبين الشخصية الإيجابية التى يفيض منها عمل الخير، وتوجه غيرها إليه، وتمضى عمليا على الطريق المستقيم، حيث تفيض المنفعة، ويتضاعف الإنتاج فى جميع مجالات الحياة.

العمل عبادة

حث الإسلام المسلمين على العمل فى المجالات الدنيوية، ووعد عليها ثواباً لا يقل عن ثواب تأدية العبادات، لأن العمل عبادة، وضرب لهم الأمثال من سير الأنبياء والصالحين الذين كانوا إيجابيين فى المجال الدنيوى، فلم يقصروا نشاطهم على ممارسة العبادات المفروضة، بل كانوا أكثر نشاطاً من غيرهم فى المجال الدنيوى. وقد قص القرآن الكريم كثيراً من الأحداث التى توضح أن الأنبياء – على الرغم من موقعهم من وحى الله – لم يبتعدوا عن الإسهام فى مجال النشاط الإنسانى، بل إنهم كانوا من أكثر الناس إتقانا فيما اتخذوه من حرفة وصناعة. فقد كان نوح رائداً فى صناعة السفن، وأثبت جدارته فى هذا الميدان حينما امتثل لأمر الله فصنع سفينة ليحمل فيها من آمن معه من قومه، ومن كل حيوان زوجين اثنين لينجو من الطوفان.

وكان إبراهيم وإسماعيل بناءين ماهرين، فهما اللذان رفعا قواعد البيت الحرام، يقول تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ** ﴾ وكذلك كان يوسف خبيراً فى المجال الاقتصادى، فاستطاع بخبرته أن يجنب مصر وما حولها مجاعة كان ستقضى على سكان مصر ومن جاورها لو لم يستخدم خبرته فى تدبير شئون البلاد فى سنى القحط، إذ يحكى القرآن الكريم خطته فى سبيل المحافظة على الإنتاج حتى لا تتعرض البلاد لمجاعة

مهلكة فيقول: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

وكان موسى من الممارسين للأعمال التى تحتاج إلى قوة العضلات، وشدة البأس مما مكنه من أن يدافع عن بنى قومه، وأن يساعد ابنتى النبى شعيب على سقى قطيعهما، فكان ذلك من الأسباب التي رشحته للزواج من إحداهما عند أبيها، يقول تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾..

وكان النبى داوود وابنه سليمان رائدين فى الصناعة، يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده، فيحكي القرآن الكريم عن ذلك فيقول: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾.

ويشرف ثانيهما على الصناعات المتعددة فى الدولة، ويجند كل طاقات الدولة فى سبيل الإنتاج الصناعي، يحكي القرآن الكريم عنه فيقول: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾.

وكان ذو القرنين رائداً فى إقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والإصلاح يحكى القرآن الكريم عنه فيقول:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾.

بل إن خاتم الأنبياء محمداً ﷺ كان لا يستنكف من العمل، إذ يُرْوَى أنه « كان فى مهنة أهله » أى خدمتهم، وكان يخصف نعله، ويذبح ذبيحته ويرقع ثوبه، كما كان تاجراً أميناً، محاربا شجاعا، وقائدا مظفرا، ومربيا حليما، وبالاختصار فقد كان رجل دين ودولة، وكان أصحابه أيضاً تجارا، ورعاة، ومحاربين، وممارسين لكل أنواع الحياة، فلم يقفوا من الأعمال الدنيوية موقفا سلبيا، ولم يكونوا متواكلين ولا عجزة، بل كانوا عمالا مهرة فى جميع مجالات الحياة، بجانب التزامهم بتأدية واجباتهم الدينية.

فإذا ظهر فى المجتمع الإسلامى من يدعو إلى العزلة عن الحياة الدنيوية، والابتعاد عنها زاعما أن الله يأمر بالعبادة فى المساجد فقط، وأن الراكعين الساجدين المسبحين آناء الليل وأطراف النهار – دون أن يبذلوا أى جهد فى تحصيل قوتهم وقوت أولادهم – أفضل ممن يؤدون الفرائض ثم يسهمون فى بناء الحضارة بما ينتجونه فى مجال الفكر، أو يبذلونه فى مجال العمل العضلى والجسمانى، فليس لهم على ذلك دليل يؤيد وجهة نظرهم، لأن الأدلة التى وردت فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف، وكذلك ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم تبين بوضوح أن الإسلام لم يطلب من المسلم حرمان نفسه من مباهج الحياة الدنيا، بل أمره

بالاستمتاع بها. لأن الدنيا فى نظر الإسلام ليس سجناً أو دار عذاب وألم، كما هو موجود فى بعض الأديان الأخرى، فقد أخبرنا بأنها دار مؤقتة، للاختبار، ولا يكون الاختبار كاملا إلا إذا منح العبد مباهجها ونعمها وطلب منه أن يرعى الله فى هذه النعم، فلا يقتنصها من حرام، ولا يمارسها بأسلوب يغضب الله. فالحياة فى نظر الإسلام ممزوجة فيها المباهج بالآلام، وهى آلام العمل والسعى إلى الرزق، والنشاط الدائم للحصول على مباهج الحياة ونعمها، فهى ليست آلاما خالصة، كما أنها ينبغى ألا تكون إغراقا فى الملذات دون الشعور بالمسئولية فى تحصيلها، أو دون أن يكون التمتع بحساب حتى لا تدمر الملذات الفرد والمجتمع.

فحين حث الإسلام على العمل فى المجالات المادية، إنما قيده بأن يلتزم العامل بالمبادىء الأخلاقية فى عمله، وحين أباح له التمتع بما كسبه من عمله، فقد حدده بما يعود على الفرد والأمة بالخير، بحيث لا تدمر الملذات نفس الإنسان، بحيث لا يطغى الاستغراق فى المادة على ماعداها فينحل المجتمع وينهار، وتلك هى الآفة المدمرة للمجتمعات الإنسانية وصد الله إذ يقول: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾.

فالعمل واجب، والاستمتاع بما فى الدنيا مباح وفى الحدود التى لا تؤثر على كيان الفرد والأمة، فإذا وقف المسلمون موقفاً سلبياً من الأنشطة المادية فى المجتمع، فلا يعتبر هذا دليلا على أن الإسلام حرم العمل فى هذا المجال، بل مؤشراً على عدم فهم لروح تعاليم الإسلام.

تعتبر حواس الإنسان قنوات موصلة للصور الفكرية التى تحدث فى محيطه إلى صفحة الذهن، حيث تتفاعل مع بعضها البعض، فتربى ملكة التفكير عنده، تلك الملكة التى - تلعب دوراً كبيراً وهاماً، بل يكاد يكون رئيسيا فى ضبط السلوك، وتوجيه النشاط فى جميع مجالات الحياة، وأحيانا يصل تفاعل الصور الفكرية الواردة من خارج الإنسان مع قوى التفكير عنده، فتتحول إلى قوى إبداعية فى استحداث صور جديدة فى مجال الفكر بجميع فروعه، وقد يصل هذا الإبداع إلى حد الخيال المطلق الذى يحلق فى سماء اللامعقول، مما يضفى على النفس شعوراً بكينونة الذات، وقدرتها على المشاركة فى تكوين الصور التى تشرئب إليها النفس، وتهفو إليها الأفئدة، وتسعى إلى تحقيقها الجوارح، وتتبع مظانها النفسى، فيرتاح القلب، وتهدأ الأعصاب، فيحس المرء بلذة تضفى عليه سكرة الاستمتاع بما أبدع من صور لم يسبق إليها، وتغشاه نشوة الفرح والسرور لما قدم للمجتمع فى مجال الإبداع والابتكار.

ولا يقتصر الشعور بالنشوة والفرح على من أبدع وأخرج من الصور الفكرية ما يبعث الحياة فى الأمم والأفراد، بل إن من يشاهد هذه الصور، أو تصل إلى وعيه وإدراكه عن طريق قنوات الاتصال يستمتع بها استمتاعاً لا يقل عن استمتاع من أنشأها وابتكرها. ومن هنا كان دور الفنانين والمبدعين فى أى مجال من مجالات

الحياة حيويا فى حياة الأمم والشعوب، بل أنه ضرورى، إذ تقوم عليه استمرارية التقدم، وتبنى عليه أسس الحضارة، لأن الأمة إذا نضب تفكيرها، وتوقف إبداع أبنائها، فعجزت عقولهم عن الابتكار، وتخلفت عن ركب الحضارة، وتوقفت عن الإسهام فى مجالات الرقى والتقدم، وعند ذلك تفقد مكانتها بين الأمم، وتضيع فى مجاهل التاريخ.

ولا ينبغى أن يقتصر التجديد والابتكار على جانب دون آخر من جوانب النشاط الإنسانى، بل يجب أن يشمل كل مناحى الحياة، سواء كانت مادية أو معنوية، بل إن استمرار التقدم المادى فى المجتمعات المعاصرة يحتاج إلى دعم من الجانب المعنوى والروحى حتى يكون قادراً على العطاء، فلا يتوقف بسبب الملل أو الضجر الذى يصيب الإنسان عندما يغوص فى أعماق المادة، وتتقاذفه تياراتها. وأعنى بالجانب المعنوى أو الروحى ذلك النشاط الذى يجدد الروح، ويجلو الصدأ عن سطح النفس، ويذيب تراكمات الملل التى خلقها الانغماس فى محيط الأمواج المادية من على صور الإنسان، ولا يوجد شىء له هذا الفاعلية إلا الفن بجميع أنواعه، فالإبداع فى مجال الأدب راحة نفسية للمبدع، واستمتاع روحى للقارىء. والخيال فى مجال القصة والرواية والتمثيل من وسائل تحقيق الذات لمن يكتب، وهى أسلوب ترفيهى – وتعليمى أيضاً – لمن يتلقى صورها الفكرية، سواء عن طريق العين قراءة ومشاهدة، أو عن طريق الأذن سماعا. والرسم تعبير عن إحساس الفنان يرتاح نفسيا عندما يراه مرئياً أمامه على

اللوحات، ويستمتع به المشاهد عندما يتأمله، ويسرح بخياله فى خطوطه وألوانه. وكذلك الغناء والموسيقى، يرتب النغم فيها من أعطاه الله قدرة على تنسيق الأصوات، فيجد فيهما ذاته، ويرهف أحاسيس الآخرين بسماعها، فتزداد أذواقهم رقة، وقلوبهم صفاء ونقاء.

ولهذا لم يحرم الإسلام الابتكار فى مجال الفن، بل حث عليه إذا كان وسيلة من وسائل خدمة العقيدة، فقد روى أن رسول الله ﷺ كان يشجع حسان بن ثابت على الاستمرار فى الإبداع فى مجال الشعر فكان يقول له: «ايه يا حسان» أى هات ما عندك من شعر، وأبْدِع فيه ليكون سلاحاً من الأسلحة التى توجه إلى الأعداء وفى الوقت نفسه يضفى نوعاً من الارتياح النفسى على من يسمعه أو يقرؤه. وقد فهم المسلمون الأوائل هذه القاعدة، فأسهموا فى مجالات فنية مختلفة، ترجموا عن طريقها بأسلوب فنى ما يدعو إليه الإسلام من مبادئ وتعاليم، فكان الفن لديهم مرآة للدين تعمق العقيدة الإسلامية فى وجدان المجتمع، وتثبت معانيها فى أحاسيس المؤمنين. ومن هذا المنطلق تكونت فى كل مجالات الفن الإسلامى وحدة جمعت بين المبادئ الدينية وبين ما يستعمله المؤمن فى حياته، وحدة لم تعرف فى أى دين من الأديان، إذ لا يوجد فى الإسلام ما يفصل بين الفن الدينى والدنيوى، فهما متعانقان، لأن الهدف من كل منهما هو المحافظة على اتزان حياة المؤمن، حتى يستطيع أن يؤدى ما عليه من تعاليم دينية، وواجبات دنيوية فى ظروف نفسية ملائمة.

وعلى الرغم من وضوح العلاقة بين الدين والفن، فقد رأينا بعض من يتصدرون للفتوى يهاجمون الفن ويحرمونه، ويصبون اللعنات على من يمارسه، أو يتصل به بأدنى صلة. وهذا الموقف إن دل على شيء فإنما يدل على عدم وضوح الرؤية عندهم، وعدم فهمهم لروح الإسلام وتعاليمه، والدليل على ذلك أن فيهم من يحرم كتابة القصة بحجة أن ما فيها من أحداث لاصلة له بالحقيقة، فهى خيال لا واقع له، وهذا هو الكذب الذى حرمه الإسلام.. ألا يدل هذا على أن صاحب هذا الرأى لاوزن له علميا، وبالتالى فلا يعتد برأيه؟ ألم ير أن القرآن الكريم قد ضرب أمثالا لم يقع ما ذكر فيها من أحداث، وذلك لتقريب معناها إلى أذهان الناس، اقرأ قوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** ﴾ هل وجد آنذاك ذلك الرجل الذى تشاكس فيه الشركاء، أم أنه من قبيل ضرب الأمثال لتوضيح المعنى. فكذلك القصة خيال عُبِّر عنه بالأسلوب الأدبى لتوضيح ما أراد الكاتب بيانه للناس.

* * *

الإسلام والحياة المعاصرة

يدور حوار حاد فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة بين من يدعو إلى تطبيق التعاليم الإسلامية فى جميع مجالات الحياة، وبين اتجاهات متعددة، يرى كل اتجاه منها أنه يجب الفصل بين الإسلام وبين شئون الحياة الدنيوية، إذ ينبغى أن تقتصر سيادته على مجال العبادة، أما الشئون السياسية والاقتصادية وكذلك ما يتعلق بتسيير دفة الحياة، فى المجتمع، فلا شأن له به، ومن هنا فلا يجوز لأحد أن يقحم الدين فى شُعب الحياة المختلفة.

ولا تتخذ هذه الاتجاهات موقفا واحدا ومتطابقا بالنسبة لعلاقة الإسلام بما هو خارج عن نطاق العبادات الفردية، بل هناك مواقف مختلفة، فبعضها يسمح بسيادة الدين فى مجالات دون أخرى، وبعضها الآخر يتخذ موقف المعارضة لتدخل الدين فى أى شأن من شئون الحياة خارج نطاق العبادة الفردية، ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن علاقة كل المعارضين بالإسلام واهية أو مقطوعة، فإن لدى كثير منهم عقيدة راسخة، وإيماناً عميقاً، وحرصا على تأدية الفرائض لدرجة أن بعضهم يمكث ساعات فى محراب الصلاة، ويشارك بقلبه ووجدانه فى جلسات روحية، ولا يبخل ساعة فى تقديم العون والمساعدة للآخرين انطلاقا من الواجب الدينى الملقى على عاتقه، فهو لا يفرط فى فرض من الفرائض الدينية، ولا يهمل عملاً صالحاً نص عليه فى القرآن أو الحديث، أو ورد فى أثر من آثار الصحابة رضوان الله عليهم. وقد يبدو أن

هذا متناقضا مع موقفه من سيادة الدين فى جميع مجالات الحياة، لكن من يبحث الأمر بجدية، يتبين له أنه ليس هناك تناقض، بل لَبْسٌ، وعدم فهم لطبيعة الإسلام وتعاليمه.

ومن أين جاء هذا اللبس وعدم الفهم؟

جاء من مصدرين:

الأول:

القوى الاستعمارية، ذلك أن الاستعمار اصطدم بصخرة عاتية فى المجتمعات الإسلامية، إذ قابلته معارضة عنيفة فى كل مكان – حاول أن يفرض سلطانه فيه – انطلاقا من عقيدة المسلمين التي علمتهم أن لا سلطان للكافرين على المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾. فشن المسلمون على الاستعمار حرباً شعواء حتى لا يمكنوه من أن يتسلط عليهم.

كما دفعهم إلى الجهاد ضد المحتلين ما ورد فى القرآن الكريم من آيات عدة، تحث المسلمين على الجهاد ضد أعداء الله، وتحرم عليهم اتخاذهم أولياء، لأنهم أعداء الله، يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ ويقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ**

خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

ولهذا لم تهدأ المناطق الإسلامية التى دخلها الاستعمار أبدا، فلم يخضع المسلمون لسلطان المستعمرين، ولم يستكينوا لسطوتهم. وعندما تبين للمستعمرين أن السلاح لن يحقق هدفهم لجأوا إلى السلاح الفكرى، فوضعوا برنامجاً ثقافياً يهدف إلى نشر الفكر الأجنبى بين أبناء المسلمين، ودسوا فى خطتهم من النظريات والقضايا التى تتعلق بالحياة فى ثوب يؤدى إلى إضعاف العلاقة بين الشباب وبين الإسلام وذلك بإقناعهم – عن طريق هذا البرنامج – بأن الإسلام لا يناسب الحياة العصرية، ولذلك ينبغى الفصل بينه كعبادة، وبين الحياة كنظام، وإلا تخلف المجتمع، وعجز عن مواكبة التقدم. وطفقوا يضربون على هذا الوتر حتى اقتنع بهذه الدعوى كثير من المسلمين، وخاصة أولئك الذين لم يحصلوا على قدر من الثقافة يمكنهم من فهم حقيقة الإسلام وعلاقته بالحياة. ومن هنا رأينا مسلمين يعتقدون أن الإسلام دين عبادة فقط، فلا شأن له بالحياة، ولذا يجب أن تترك للناس يصرفونها وينظمونها بعيداً عن تسلط الدين ورجاله.

الثانى: كان من الممكن أن تفشل هذه الحركة الاستعمارية، لو لم يقف رجال الدين من الحضارة الحديثة موقف المعارضة

المطلقة، إذ عندما اتصل الشرق الإسلامى بالغرب بعد طول انقطاع قطع فيه الغرب شوطاً كبيراً فى طريق الحضارة وجد المسلمون أنفسهم أمام صور جديدة، ومظاهر لم يعرفوها من قبل. وكان عليهم إزاء هذا الوضع أن يدرسوها ويأخذوا منها ما يساعدهم على دفع عجلة التقدم دون المساس بأصول العقيدة أو إهمال التقاليد والعادات المنبثقة من التعاليم الإسلامية، ويرفضوا ماعدا ذلك إن كان فيه تهديد للهوية الإسلامية، أو تشويه للطابع الإسلامى. فلو فعل المسلمون ذلك لحالوا بين المستعمر وبين الوصول الى هدفه، وهو إبعاد الإسلام عن ساحة الحياة فى المجتمع. ولكن ما حدث: أن رجال الدين رفضوا كل ما لا يعرفونه، حتى وان كان ضروريا للحياة. رفضوه لمجرد أنه لم ينبت فى المجتمع الإسلامى، وان لم يكن له تأثير على العقيدة، فعلى سبيل المثال: عارض رجال الأزهر تدريس المواد التطبيقية والتجريبية فى الأزهر - وقد حدث ذلك أيام أن كان الأزهر هو المؤسسة التعليمية الوحيدة فى المجتمع - بحجة أن ذلك سيكون على حساب العلوم الشرعية. وغاب عنهم أن الإسلام يدعو إلى البحث والنظر فى كل مظاهر الحياة، لأن فى ذلك قوة للمسلمين ومنعة لهم من أن يكونوا فريسة لأولئك الذين يسبقونهم فى هذه المجالات، وفى ذلك خدمة للإسلام لا تقل عن التوسع فى دراسة العلوم الإسلامية.

كان موقف رجال الدين الرافض لتعلم العلوم الحديثة دليلا قويا استخدمه الاستعمار فى إقناع الشباب بعدم صلاحية الإسلام

للحياة المعاصرة. فهو للعبادة فقط – هكذا لقنهم – وليس لتصريف شئون الحياة الدنيوية، وبذلك قدم رجال الدين للاستعمار أقوى سلاح حقق به هدفه، حيث أقنع كثيراً من الشباب المسلم بوجهة نظره، ألا وهى إبعاد الإسلام عن مجال السياسة والحكم والاقتصاد وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بالسيادة والحكم، فتكونت بذلك طبقة تحافظ على تأدية الفرائض فى مجال العبادات وتحرص عليها بشدة، ومع ذلك تعمل على إبعاد الإسلام عن أن تكون له السيادة فى أى مجال من مجالات الحياة.

أدرك بعض رجال الدين هذا الوضع مؤخراً، فحاولوا توضيح العلاقة بين الإسلام والحياة، على أساس من كتاب الله وسنة رسوله، فهم يبينون للمسلمين خطأ ما قاله أسلافهم فى معارضتهم للحضارة الحديثة، إلا أننا لازلنا نسمع بين الحين والآخر – وخاصة من بعض الجماعات المتطرفة – من يصر على رفض كل مظاهر الحياة المعاصرة باسم الإسلام، وهم بهذا الموقف يدعمون موقف أعداء الإسلام، كما فعل أسلافهم.

* * *

خاتمة

تلعب الحياة فى المجتمع الإسلامى دوراً كبيراً فى مجال الدعوة إلى الله فى المجتمعات غير الإسلامية فى العصر الحديث؛ ذلك أن الاستشهاد بالنظريات والتركيز على المبادئ السامية فى الإسلام لا يكون لهما أثر فى هذا المجال إلا على الدارسين والمهتمين بالثقافة العالمية، وهؤلاء لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة جداً فى المجتمعات الإنسانية، أما سواد الناس فوسائل التأثير عليهم فى هذا المجال تختلف عن هذا المنهج، إذ أننا لو اعتبرناه وسيلة من وسائل الدعوة فى المجتمع الإسلامى، أو أسلوبا من أساليب الإقناع مع المهتمين بالثقافات العالمية من أبناء الأديان الأخرى، فإنه لا يصلح وسيلة للدعوة مع عامة الناس، لأنهم لا يعيرون اهتماماً كبيراً لما يحتويه التراث من مبادئ وتعاليم، بل يُرَكِّز اهتمامهم على صورة الحياة فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فإن كانت قائمة على أسس تتناسب مع طبيعة الحياة البشرية، وتلبى حاجات الفرد والمجتمع، وتحافظ على كل ما من شأنه أن يرفع قدر الإنسان فى إطار حياة اجتماعية قائمة على أساس العدل والمساواة، وتكافؤ الفرص فى كل ما هو متاح للإنسان فى الطبيعة المحيطة به، سواء تعلق ذلك بالاقتصاد، أو بالحكم، أو اتصل بالسلم الطبقى وسلوك الشباب فى المجتمع.... إلخ، فإنه يميل إلى التعرف عليها، والبحث عما وراءها من أفكار، ومحاولة معرفة المبادئ والتعاليم

الدينية التى تحكم هذا الإطار السليم للحياة البشرية، أما إذا رآى صورة المجتمع الإسلامى تتنافى مع طبيعة الحياة البشرية، وتتصادم مع المبادئ الأولى لكيان الإنسان، فإنه سوف ينفر من هذه الصورة، ويحتقر أهلها، بل ويربط بين ما فيها من سلبيات وبين العقيدة، وبالتالى سوف يرمى هذه العقيدة بكل ما عنده من نقائص، وينسب إليها كل ما فى المجتمع من انحرافات وانهيارات فى الهيكل السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ويرجع أسباب التخلف فى المجتمع إليها.

ومن هنا نرى أن صورة المجتمع الإسلامى، بما فيه من أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية تنعكس على سلوك الشباب وتصرفاته فى مجالات الحياة المختلفة، وبالتالى فهى تلعب دوراً كبيراً فى مجال الدعوة إلى الإسلام فى المجتمعات الدولية، بل نكاد نجزم أنها الوسيلة الوحيدة فى العصر الحديث للدعوة إلى الله.

* * *



الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢١٥٧٦/٢٠٠٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 – 225 – 199 –X